UNIVERSITY OF KASHMIR
.cc. No....6036....
uthor.......
itle.......

UNIVERSITY OF KASHMI
LIBRARY

DATE LABEL

15 SEP 1982		23 APR 1984	23/4/84
17 SEP 1984		P=122(T)	
2640 1320 3960		20/11/86	

Date.........

Call No..........

Account No..........

J. & K. UNIVERSITY LIBRARY

This book should be returned on or before the last st
An overdue charges of 6 nP. will be levied for each day
kept beyond that day.

297.124

ع ۸۰

۲۹۷،۱۳

م ۱۸۹۴ء

Acc. no:
6036.

S/C

ALLAMA IQBAL LIBRARY
6036

18

Acc. no
6036

حديث عيسى بن هشام

او

فترة من الزمن

لمنشئه

محمد المويلحي

الطبعة الثانية

(نظر المؤلف فيها نظرة اصلاح وتهذيب و وضع جدولا)
(فى آخر الكتاب بتفسير الالفاظ اللغوية)

كان النبي عليه الصلاة والسلام
يمزح ولا يقول الا حقاً

« حقوق الطبع محفوظة »

اهداء الكتاب

أَلِفَ المؤلفون والكتّاب أن يبدأوا كتبهم عند نشرها بإِهدائها إلى بعض ذوى الشأن والفضل . والضعيفُ العاجز يُهدى هذا الكتاب إلى كل مَنْ يقرأه من أديبٍ يجد فيه طرَفا من الأدب وحكيمٍ يرى فيه لمحةً من الحكمة وعالمٍ يبصر فيه شذرةً من العلم ولغوىٍّ يصادف فيه أثراً من الفصاحة وشاعرٍ يَشعر فيه بمثل طيف الخيال من لطف الخيال

وأهديه إلى أرواح المرحومين الأديب الوالد والحكيم جمال الدين والعالم محمد عبده واللغوىّ الشنقيطىّ والشاعر البارودىّ أولئك الذين أنعم الله عليهم وأولئك الذين تأدّبت بأدبهم وأخذت عنهم

وأهدى هذه الرسالة التى اختصنى بها المرحومُ الأستاذُ جمالُ الدين الأفغانى بخطه الكريم منذ خمس عشرة سنة إلى جماعة أهل الفضل والأدب لِما تضمنته من الحثّ على طلب العلم وأدب النفس ولحسن أسلوبها فى كتب المودّات . وهى لا تزال عندى إماماً يَهدينى ونوراً أستضيء به فأردت أن أشاركهم فى هذه

الذخيرة التي يحق الضن بها والحرص عليها ونقلتها هنا بصورة خطه الشريف تخليداً لأثر تلك اليد الكريمة . وإذا قدّرنا أن الشرقيين يتنافسون تنافس الغربيين في اقتناء الرسائل التي تكون قد صدرت عن بعض عظماء الرجال بخطوطهم ويتسابقون إلى الحصول على بعض أدوات كتابتهم ويبذلون في سبيل ذلك من الأموال والمساعي مالا يقدّر فإني أكون قد أهديت إلى أهل الفضل هدية يعتدّون بها ويتقبلونها بالقبول الحسن إن شاء الله :

حبيبي الفاضل

تقلبك في شؤون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسراتها

وخوضك في فنون الآداب يريح قلوبا علقت بك آمالها

وليس ببعيد على الأيام التي تجيء ولك يومئذ الصدارة

ولقد تمثلت للطبقة المرسومة في مذكرة أخرى وهذه تفيض من حميتها

فاشدد أزرها وارم بها وثبت من كتائبها والحق أسرها

حتى تكون كلمة الحق هي العليا ولا تكن كالذين غرتهم أنفسهم بباطلها

وأدرانها وساقتهم يتطلعون إلى مهواة شقائها وحسبوا أنهم يحسنون

صنعا ويصلحون أمرا وكن عونا للحق دافع نفسك ولا تقف غيرك

إلى الفضائل عند حدك لا نهاية للفضيلة ولا حد للكمال ولا موقف للعرفان

وإذا بلغت بعزيمتك كل منية وابتهاج فيرك ... مبال بالذي يحسبني ...

٢٠ ربيع ... ٩

حبيبي الفاضل

تقلّبك فى شؤون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسرتها وخوضُك فى فنون الآداب يريح قلوباً علّقت بك آمالها وليس بعد الإرهاص إلاّ الإعجاز ولك يومئذ التحدّى ولقد تمثلت اللطيفة الموسوّية فى مصر كرّة أخرى وهذا توفيق من الله تعالى فاشدد أزرها وأبرم بما أُوتيت من الكياسة والحذق أمرها حتى تكون كلمة الحق هى العليا ولا تكن كالذين غرّتهم أنفسهم بباطل أهوائها وساقتهم الظنون الى مهواة شقائها وحسبوا أنهم يُحسنون صنعا ويصلحون أمراً وكن عوناً للحق ولو على نفسك ولا تقف فى سيرك إلى الفضائل عند عُجبك لا نهاية للفضيلة ولا حدّ للكمال ولا موقف للعرفان وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك والسلام

جمال الدين الحسينى
الأفغانى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل . والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ الأميّ القرشيّ الأبطحيّ التّهاميّ المكيّ المدنيّ وآله الطيبين الطاهرين . وبعد فهذا الحديث حديث عيسى بن هشام وإن كان في نفسه موضوعا على نسق التخييل والتصوير فهو حقيقة متبرّجة في ثوب خيال لا أنه خيال مسبوك في قالب حقيقة حاولنا أن نشرح به أخلاق أهل العصر وأطوارهم وأن نصف ما عليه الناس في مختلف طبقاتهم من النقائص التي يتعيّن اجتنابها والفضائل التي يجب التزامها . وهذه الطبعة الثانية بعد نفاد الطبعة الأولى تعهدناها بما تقتضيه معاودة النظر من اصلاح مواضع النقص والإهمال . ومداركة ما لا يخلو منه كل عمل من شائبة السهو والإغفال ومن الله التوفيق لكل حال والتسديد

حدثنا عيسى بن هشام ـ قال رأيت فى المنام . كأنى فى صحراء «الإمام» . أمشى بين القبور والرِّجام . فى ليلة زهراء قمراء . يستر بياضُها نجومَ الخضراء . فيكاد فى سَنا نورها ينظم الدرَّ ثاقبه . ويرقب الذرَّ راقبُه . وكنت أحدّث نفسى بين تلك القبور . وفوق هاتيك الصخور . بغرور الإنسان وكبره . وشموخِه بمجده وفخره . وإغراقه فى دعاويه . وتغاليه فى تعاليه . واستعظامِه لنفسه . ونسيانِه لرَمسه . فقد شمخ المغرور بأنفهِ حتى رام أن يثقب به الفلك . استكباراً لما جمع واستعلاءً بما ملك . فأرغمه الموت فسدّ بذلك الأنف شقّاً فى لحده . بعد أن وارَى تحت صفائحه صحائفَ عزه ومجده . ومازلت أسير وأتفكر . وأجول وأتدبر . حتى تذكرت فى خُطاى فوق رمال الصحراء قولَ الشاعر الحكيم أبى العلاء :

خفّفِ الوطءَ ما أظن أديمَ الـ ... أرضِ إلا من هذه الأجساد
وقبيحٌ بنا وإن قَدُم العهدُ هوانُ الآباءِ والأجداد
سِرْ إن اسطعتَ فى الهواء رُويداً ... لا اختيالاً على رُفات العباد

فقرعتُ سن الندم . وخففتُ وطءَ القدم . وإنَّ فى دَهماء أولئك الأموات . وغِمارِ تلك الرمم والرفات . لَمباسمَ طالما حوَّل العاشقُ قِبلتهُ

لقُبلتها . وباع عذوبة الكوثر بعذوبتها . قد امتزجتْ بغبار الغبراء . واختلطت ثناياها بالحصى والحصباء

وتذكرتُ أن تلك الخدود التى كان يَغارُ منها الورد فيبكى بدموع الندَى . ويشتعل الفؤاد منها بنار الجوَى . ويقف الخال منها موقف الخليل من النيران . أو ابن ماء السماء فى شقائق النعمان . ويترقرق فيها ماء الحياء وماء الشباب . قد طوى الدهر حسنها طىّ الكتاب . وصارت بحكم القضاء . أديماً لوجه الفضاء

وأن تلك العيون التى صادت بأهدابها الملوكَ الصيد . فكانوا رعاة الأمم رعايا الغيد . وسحرت ببابلَ هاروتَ وماروت . وأوقفتْ موقف الاستكانة ربّ الجلال والجبَروت . يلتمس ـ والتاج فى يمينه . وعَرَق الحياء فوق جبينه ـ من خلال لحظاتها قبولا . كسائلٍ عمدٌ لالتماس الإحسان كشكولا . قد أمستْ تراباً تحت الرمس . كأن لم تفتن بالأمس

وأن ذلك الفاحم الأثيث من الشَّعَر . الخاطفَ ببريقهِ سواد القلبِ والبصر . قد حصدتْهُ من منابتهِ يدُ الزمن . فنسجَ الأجلُ منهُ ثوب الكفن

وأن تلك النهود التى كأنها حِقاق من لجينٍ تزينت بحب من

المرجان . أو كُرات من جليد يشق فيها زهر من الرمان . قد أصبحت كالمخلاة على الصدر . تحمل الزاد لدود القبر :

كم صائنٍ عن قُبلةٍ خدَّهُ   سُلِّطت الأرضُ على خدِّهِ
وحاملٍ ثِقلَ الثرى جيدُهُ   وكان يشكو الضعفَ من عِقدِهِ

وأن تلك الرُّفات والعظام . من بقايا الملوك العظام . الذين كانوا يستصغرون الأرض دارا . ويحاولون عند النجوم جوارا . وتلك الضلوعَ التى انحنت على البطش والحلم . والشفاهَ التى طالما لفظت أمر الحرب والسلم . ـ وتلك الأناملَ التى كانت تبرى القلم للكِتاب . وتبرى بالسيوف الرقاب . ـ وتلك الوجوهَ والرؤوس . التي استعبدت الأبدان والنفوس . وَوُصفت تارة بالبدور وتارة بالشموس . ـ قد تساوى الرئيس فيها بالمرؤوس . فلا تفريق اليوم ولا تمييز . بين الذليل منها والعزيز :

هو الموتُ مثرٍ عنده مثلُ مقترٍ
وقاصدُ نهجٍ مثلُ آخرَ ناكبِ
ودرعُ الفتى فى حكمهِ درعُ غادةٍ
وأبياتُ كسرى من بيوت العناكبِ

فَرُجِّلَ فى غبراءَ والخطبُ فارسٌ
وما زال فى الأهلين أشرفَ راكبِ
وما النعشُ إلا كالسفينةِ راميًا
بِغَرْقاهُ فى موج الردَى المتراكبِ

وبينا أنا فى هذه المواعظ والعبر . وتلك الخواطر والفكر . أتأمل فى عجائب الحدَثان . وأعجب من تقلب الأزمان . مستغرقا في بدائع المقدور . مستهديا للبحث في أسرار البعث والنشور . إذا برَجَّة عنيفة من خلفى . كادت تقضى بحتفى . فالتفتُّ التفاتة الخائف المذعور . فرأيت قبراً انشق من بين تلك القبور . وقد خرج منه رجلٌ طويل القامة . عظيم الهامة . عليه بهاء المهابة والجلالة . ورُواء الشرف والنبالة . فَصعِقتُ من هول الوَهَل والوَجَل . صعقةَ موسى يوم دُكّ الجبل . ولما أفقت من غشيتى . وانتبهت من دهشتى . أخذت أُسرع فى مشيتى . فسمعته يناديني . وأبصرته يدانيني . فوقفت امتثالاً لأمره . واتقاءً لشره . ثم دار الحديث بيننا وجرَى . على نحو ما تسمع وترى . بالتركية تارة وبالعربية أخرى :

(الدفين) — ما اسمك أيها الرجل وما عملك وما الذى جاء بك

فقلت فى نفسى حقا إن الرجل لقريب العهد بسؤال الملكين

فهو يسأل على أسلوبهما فاللهمَّ أنقذنى من الضيق . وأوسع لى فى الطريق . لأخلُص من مناقشة الحساب . وأكتفى شر هذا العذاب .

ثم التفتُّ إليه فأجبته :

(عيسى بن هشام) — اسمى عيسى بن هشام . وعملى صناعة الأقلام . وجئت هنا لأعتبر بزيارة المقابر . فهى عندى أوعظ من خطب المنابر

(الدفين) — وأين دواتك يامعلم عيسى ودفترك

(عيسى بن هشام) — أنا لست من كتاب الحساب والديوان . ولكنى من كتاب الإنشاء والبيان

(الدفين) — لابأس بك فاذهبْ أيها الكاتب المنشئ فاطلبْ لى ثيابى وليأتونى بفرسى « دهمان »

(عيسى بن هشام) — وأين يكون ياسيدى بيتكم فإنى لا أعرفه

(الدفين) مشمئزًّا — قل لى بالله من أى الاقطار أنت فإنه يظهر لى أنك لست من أهل مصر إذ ليس فى القطر كله من أحد يجهل بيت أحمد باشا المنيكلى ناظر الجهادية المصرية

(عيسى بن هشام) — اعلمْ أيها الباشا أنى رجل من صميم أهل مصر ولم أجهل بيتك إلاَّ لأن البيوت فى مصر أصبحت لاتعرف بأسماء أصحابها بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها فاذا تفضلتَ

وأوضحت لى عن شارع بيتكم وزقاقه ورقمه انطلقت اليه وأتيتك بما تطلبه

(الباشا) مغضباً — ما أراك أيها الكاتب إلا أن بعقلك دخلاً فمتى كان للبيوت أرقام تُعرف بها وهل هى « إفادات أحكام » أو « عساكر نظام » والأولى أن تناولنى رداءك أستتر به وتصاحبنى حتى أصل الى بيتى

(قال عيسى بن هشام) — فنزلت له عن ردائى — وقد كان المعهود أن سلب المارّة لا يكون إلاّ من قُطاع الطريق فإذا هو يكون أيضاً من سكان القبور — ثم ارتداه مستنكفاً متردّداً وهو يقول

(الباشا) — للضرورة أحكام وقد لبسنا أدنى من هذا الرداء فى مصاحبتنا لأفندينا المرحوم إبراهيم باشا على طريقة التنكر و « التبديل » فى الليالى التى كان يصرفها في البلد ليستطلع بنفسه أحوال الرعية . ولكن كيف العمل وكيف يتسنى الدخول

(عيسى بن هشام) — ماذا تريد

(الباشا) — أنسيتَ أنا فى الثلث الأخير من الليل وليس من يعرفنى بهذا الرداء على أبواب مصر ولم يكن معى كلمة « سرّ الليل » فكيف تُفتح لنا الأبواب

(عيسى بن هشام) – كما أنك يا سيدى لم تعرف أرقام البيوت ولم تسمع بها فى حياتك فأنا لا أعرف « سرّ الليل » ولم أسمع به

(الباشا) مستهزئاً ضاحكا – ألم أقل لك إنك غريب الديار ألم تعلم أن « سرّ الليل » كلمة تصدر من القلعة فى كل ليلة إلى « الضابطة » وإلى جميع « القره قولات » والأبواب فلا يجيزون لأحد مشى الليل إلاّ إذا كان حافظا لهذه الكلمة يلقيها في أذن البواب فيفتح له وهي تُعطى لمن يطلبها من الحكومة سراً لقضاء أشغاله بالليل وتتغير فى كل ليلة. فليلة تكون كلمة « عدس » وليلة تكون « خضار » وليلة تكون « حمام » وليلة تكون « فراخ » وهلم جرّا

(عيسى بن هشام) – يظهر لى من كلامك هذا أنك لست أنت من أبناء مصر فما علمنا أن هذه الألفاظ تطلق فيها على غير الأطعمة ولم نسمع أنها تدل على الإجازة للناس بالسير فى ليلهم . ومع ذلك فقد دنا الفجر ولم يبق بنا من حاجة لهذه الكلمات أو غيرها

(الباشا) – الأمر فى ذلك موكول إليك

قال عيسى بن هشام – فسرنا فى طريقنا وأخذ الباشا يزيدنى تعريفا بنفسه ويقص علىّ من أنباء الحروب وأخبار الوقائع التى

شاهدها بعينه وسمعها بأذنه ويذكر لى ماشاء من مآثر محمد على وشجاعة إبراهيم. ومازلنا على تلك الحال حتى وصلنا فى ضوء النهار إلى ساحة القلعة فوقف وقفة المستكين الخاشع يقرأ سورة الفاتحة لضريح محمد على ويخاطب القلعة بقوله فى بلاغة تركيته :

« إيه لك يامصدر النعم ومصرع الجبابرة من عتاة المماليك ويابيت الملك وحصن المملكة ومنبع العز ومهبط القوة ومرتفع المجد وموئل المستغيث وحمى المحتمى وكنز الرغائب ومنتهى المطالب ومثوى البطل الشهم ومقبر الملك الهمام . أيها الحصن كم فككتَ بالكرم عانيا . وقيدتَ بالاحسان عافيا . وكم أرغمتَ أنوفا . وسللتَ سيوفا . وجمعت بين البأس والندى . وداورتَ بين الحياة والردى »

قال عيسى بن هشام — ثم التفت الباشا إلىّ وقال : أسرع بنا نحو البيت لألبس ثيابى وأتقلد حسامى وأركب جوادى ثم أعود إلى القلعة فألثم أذيال وليّ النعم الداوريّ الأعظم

*
* *

ولما غادرنا ساحة القلعة انحدرنا فى الطريق وبينا نحن نسير إذ تعرّض لنا مُكارٍ يسوق حمارهُ وقد راضهُ الخبيث على التعرض وسدِّ الطريق على المارة فكلما سرنا وجدنا الحمار فى وجهتنا والمكارى

ينبح بصوت قد بُحَّ حتى أمسك بذيل صاحبي يقول له :

(المكارى للباشا) ـ اركب يا أفندى فقد عطلتنى وأنا أسير وراءك من الصباح

(الباشا للمكارى) ـ كيف تدعونى أيها الشقىّ الى ركوب الحمار وما رغبتُ فيه أبداً وما دعوتك فى طريقى وكيف لمثلى أن يركب الحمار الناهق ٠مكان الجواد السابق

(المكارى) ـ وكيف تنكر إشارة يدك التي دعوتنى بها وأنت تتكلم مع صاحبك فى طريق «الإمام» وقد دُعيتُ مراراً من السائرين فلم أقبل منهم ولم ألتفت إليهم لارتباطى معك بتلك الإشارة فاركب معى أو أعطنى أُجرتى

(الباشا) وهو يدفع المكارى بيده ـ اذهب عنا أيها السفيه فلو كان سلاحى معى لقتلتك

(المكارى) متسافهاً فى القول ـ كيف تجسر على هذا الكلام فاما أن تعطينى أجرتى وإما أن تذهب معى إلى «القسم» وسترى هناك مايعاقبونك بهِ على تهديدك إياى بالقتل

(الباشا لعيسى بن هشام) ـ اني لأعجب من صبرك على هذا الفلاح السفيه الذي استرسل معنا فى سفاهته ووقاحته فهلمّ فاضربهُ

بالنيابة عنى حتى تريحهُ من عيشته وتريحنا منهُ

(عيسى بن هشام) ـ كيف يكون ذلك وأين القانون وأين الحكام

(الباشا) ـ مالى أراك قد شق الخوفُ قلبك وقطع الهلع أنفاسك أيعتريك الخوف وأنت معى إن هذا لعجيب منك

(المكاري) مستهيناً ـ العفو! العفو! من هو أنت ومن هو غيرك ونحن في زمن الحرّية لا فرق بين الصغير والكبير ولا تفاوت بين المكارى وبين الامير

(الباشا لعيسى بن هشام) ـ ويحك هلمَّ فاضربهُ أو دعنى أقتله

(عيسى بن هشام) ـ أنا لا أضرب أحداً وأنت لا تقتل أحداً مادمت معى واعلم أنهُ لا تصدر منا (مخالفة) أو «جنحة» أو «جناية» إلا والعقاب من ورائها فلا تعجب من طول صبرى واحتمالى وأقول لك ماقالهُ الخِضر لموسى عليه السلام «إنك لن تستطيعَ معىَ صبراً وكيف تصبر على مالم تُحِطْ بهِ خُبرًا» والطريقة للتخلص من سفاهة هـذا السفيه أن أُعطيه شيئاً من الدراهم فيتحول عنا الى سوانا وأنا أسأل الله أن يبلغنا بيتك بالسلامة

(الباشا) ـ لا تعط هذا الكلب النابح درهما واحداً وقد أمرتك ان تضربهُ فان لم تفعل فانا أتنزّل إلى ضربه وتأديبه والفلاّح لا يصلح

جلدهُ الا بجلده

قال عيسى بن هشام ـ ثم أمسك الباشا بعنق المكارى وأوسعهُ ضربا وأخذ المكارى يستغيث وينادى يا « بوليس » يا « بوليس » وأنا أجتهد فى إنقاذه من مخالبه وأستعيذ بالله من شر هذا اليوم وأقول للباشا : ليس هذا مما يحمد عقباهُ فاتقِ الله أيها الأمير فى عباد الله . فما أتممت هذا القول حتى رأيتُه اشتد به الغضب وتغلبت عليهِ الحدة فتغير وجههُ وانقلبت حماليقهُ وتقلصت شفته واتسعَ منخره وضاقت جبهته فخفتُ أن يحملهُ جنون الغضب على البطش بى مع المكارى فتداركت أمرى وقلت لهُ : مثلك أدام الله عزك لا يتنزل لمثل هذا الفعل فأنت أرفع قدراً من أن تَمَسَّ بيدك الشريفة مثل هذه الجيفة فسكّنت بذلك من حدته وعمدت الى المكارى فوضعت فى يده دُريهماتٍ على غير علم من الباشا وطلبت منهُ ان ينصرف عنا فما ازداد اللئيم بذلك الا استغاثة بالشرطة واستنجاداً بالبوليس

(الباشا لعيسى بن هشام) ـ ألم أقل لك ان الفلاح لا يصلحهُ الا الضرب ألم تعلم ان غاية ما ينتهى اليهِ امره فى رفع الالم عنهُ ان يعلو صياحه استغاثةً بالمشايخ والاولياء . ولكن قل لى بالله هل «بوليس» هذا الذى يناديه ويستغيث به ولىٌّ جديد

(عيسى بن هشام) - نعم ان هذا البوليس هو ولىّ الامر احتلت فيهِ القوّة الحاكمة

(الباشا) - لست افقه هذا المعنى فأوضحْ لى حقيقة هذا البوليس

(عيسى بن هشام) - هو « القوّاس » الذى تعرفه

(الباشا) - وأين هذا « القوّاس » الذى لا يسمع النداء فانى ارغب فى حُضوره ليتلقى امرى فى هذا الشقى

(المكارى) - يا بوليس ! يا بوليس!

(الباشا لعيسى بن هشام) - هلم الى مساعدته فى نداء القوّاس

قال عيسى بن هشام - فقلت فى نفسى كيف انادى البوليس وانا احمد الله على سكوته وسكونه وهو بمقربة منا لا يكترث بنداء المستغيث . ثم التفتُّ الى الباشا وقلت له : ان البوليس هو هذا الذى تراهُ أمامنا وليس يفيد فيهِ الآن صياحٌ أو نداءٌ فانهُ مشتغل ببائع الفاكهة كما ترى . ولما لمح المكارى البوليس أمامه أسرع اليه وتبعهُ مَنْ تجمَّع حولنا من النظّارة فوجدوهُ واقفا وفى يده منديل أحمر قدامتلأ بأصناف متنوعة مما جمعهُ في صباحه من باعة الاسواق فى محافظته على « النظام » وهو لاهٍ بصاحب الدكان يأمره ان يضع فى داخلها ماعرضه فى خارجها من عيدان القصب وفى يده عود

منها يهدده بهِ ويهزهُ فى وجهه هِزّة الرمح ثم هو يضاحك من جهة أخرى طفلا على كتف امرأة ويناغيه حتى اذا أقبلنا نحوهُ أقبل علينا والمنديل فى يدٍ وعود القصب فى الاخرى

(البوليس للجمع) ـ ماهذا الصياح فى الصباح وما هذا النداء وما هذا الغناء كأَن كل واحد من الاهالى يريد أن يكون لهُ واحد من البوليس خاص بخدمته

(المكارى) ـ أغثنى «ياسعادة الچاويش» فان هذا الرجل ضربنى ولم يعطنى أجرتى وأنت تعرفنى فى هذا «الموقف» وتعرف أننى لست ممن يتشاجر أو يتخاصم

(الباشا) ـ خذ أيها القوّاس هذا السفيه وضعهُ فى السجن حتى يأتيك أمرى فيهِ

(البوليس للمكارى) ـ من أين ركب معك هذا الرجل يا «مُرسى»

(المكاري) ـ ركب معى من جهة «الامام»

(الباشا للبوليس) ـ ماهذا الابطاء فى تنفيذ أمرى . أسرع به الى السجن

(البوليس) ضاحكاً هازئاً ـ أظنك ايها الرجل من « مجاذيب الحضرة» فى «الإِمام» هلمَّ معى الى القسم فان هيئتك تنبئ عن افلاسك

وعجزك عن دفع الاجرة

قال عيسى بن هشام ـ وجذب الشرطي صاحبي من ذراعه فكاد يُغمى عليه من الدهشة فلم يدر مايصنع . وأودع البوليس ما كان في يديه من الفاكهة وغيرها عند الرجل الذي أودع المكاري حماره عنده وسار صاحبي مسحوباً بذراع الشرطي والمكاري خلفهما والجمع على اثرهم الى «القسم» فلما وصلوا اليه وصعدوا السلم بدأ المكاري يصرخ ويصيح فقابله احد عساكر «المراسلة» فضربه ليسكته لان «حضرة المعاون» غريق في نومه فدخلنا جميعاً في حجرة «الصول» لضبط الواقعة فوجدناه يأكلُ والقلمُ في أذنه وقد نزع «طربوشه» وخلع نعليه وحلّ ازرار ثيابه وبجانبه اثنان من الفلاحين اظنهما من اقربائه يشاهدان مايتمتع بهِ من لذة الامر والنهي وسعة سلطانه على الكبير والصغير في عاصمة القطر وقاعدة الملك وما في قدرته من حبس أي شخص كان وشهادتهِ عليه بما يجري في هواه . فطرَدَنا جميعاً من الحجرة حتى ينتهي من طعامه فخرجنا ننتظر وأراد الباشا ان يستند على الحائط من شدة ما ألمّ بهِ من الحزن فخانتهُ يدهُ فسقط فوق جنديّ كان يكنس الارض هناك فأخذ الجندي في السب والشتم ودخل الى حجرة «الصول» هاجماً فقال لهُ ان المتهم الذي يشتكي منه المكاري

تعدّى عليّ « فى اثناء تأدية وظيفتى » فضربنى بكل جسمه . فأمر « الصول » باحضاره ونادى كاتبه العسكريّ فطلب منه ان يحرر « محضرين » محضر مخالفة ومحضر جنحة وأملى عليه كلاما مصطلحا عليه لم افهم منه حرفا . وبعد ان شهد « البوليس » الذى جئنا معه فى محضر المخالفة بما ينفع المكارى فى تأييد دعواه وشهد « الصول » نفسه فى محضر الجنحة بانه شاهد المتهم يتعدى على احد عساكر القسم فى اثناء تأدية وظيفته ختم المحضرين وأمر بالمتهم أن يؤخذ الى « خشبة المقاس » وتحرير « ورقة التشبيه » فجاء العسكرى صاحب الدعوى واخذ بيمين صاحبى واجرى ذلك عليه بنفسه واذاقه أنواعا من الاذى فى مقاسه . كل هذا والباشا كالمغشيّ عليه من الدهشة والذهول حتى اذا أفاق من غشيته التفت الىّ يقول :

(الباشا) — انا لا أتصور فى هذه الحالة التى انا عليها الا أن يكون اليومُ يوم حشر أو أن اكون حالما فى المنام أو ان يكون الداوريُّ الاعظم غضب علىّ غضباً شديداً فأمر باهانتى على هذه الصورة الشنيعة .

confession submission

(عيسى بن هشام) — لابدّ لك من التسليم والاحتمال على كل حال حتى نخلص من هذه النازلة بسلام

قال عيسى بن هشام ـ ولما وقفنا أمام الكاتب لتحرير « ورقة التشبيه » سأل الباشا هل لهُ من ضامن يضمنه فقدّمتُ نفسى لضمانته فلم يقبلوا منى الا بتصديق « شيخ الحارة » فحرت فى أمرى ومن أين أجد « شيخ الحارة » فى الحال . فألقى بعضُ العساكر فى أذنى أن اخرجْ فانك تجد « شيخ الحارة » بالباب فأعطهِ عشرة قروش للتصديق على الضمانة فخرجت ولحقنى ذلك العسكرى فدلنى على شيخ الحارة وتوسط بيننا فى مناولة اجرة التصديق . ثم اشتغل عنى بمشاركة العساكر فى ضرب أرباب القضايا الذين علا صياحهم وعويلهم ليخرسوهم خشية ان يوقظوا المعاون من رقاده ثم مالبثوا ان رأيتهم قد امتنعوا عن الضرب فى أقل من لمح البصر وتفرقوا مهرولين كأن نازلا نزل عليهم من السماء ووجدت مَنْ كان من بينهم أشد إيذاء لعباد الله وأعظم حرصا على راحة المعاون فى منامه قد هجم على باب الحجرة فدفعهُ بكل قواه ففتحه واخذ يهزّ السرير هزاً عنيفا فاستيقظ المعاون فزعا وعلم ان « المفتش » قد شوهد داخلاً من باب القسم فاسرع الى ثيابه فلبسها فى لحظة وهرول الى استقباله فلما رآهُ وقف « وقفة النظام بعلامة التعظيم » ولكن كان من نكد طالعه انه ذهل عند لبس « الطربوش » فلم يجعل

زرّه جهة اليمين بل تركه فوق الجبهة وكان الشعر قد تجدد فى عارضيه لانه لم يتمكن من حلقه فى يومه فأخذ المفتش عليه ذلك ودخل الى الحجرة مغضباً فاشتغل بكتابة تقرير لمحاكمة المعاون على مخالفته فى الزىّ « للاوامر المستديمة »

ولما رأى الباشا سكون الضرب والصياح مرّة واحدة وما تولى العساكر من الخوف والاضطراب وما شاهده من حركات المعاون سألنى عن شأن هذا الداخل الذى أورث ذلك الانقلاب فأعلمته بأنه « المفتش » جاء إلى « القسم » للتفتيش والتنقيب فى الاحوال والنظر فى شكوى الشاكين وتطبيق أعمال العمال على مايقضى بهِ القانون والنظام . فقال اذاً فلندخل اليهِ لنعرض عليهِ ما اصابنا من الاهانة . فدخلنا فوقفنا أمامه فوجدناه يكتب فى تقريره فالتفت الينا وسألنا عن أمرنا ولما بدأنا بذكر القصة أمر أحد العساكر باخراجنا من حضرته . ثم رأيناه قد وضع التقرير في جيبه بعد كتابته ونزل مسرعاً لم يلتفت فى التفتيش والتنقيب لغير زىّ المعاون . ولما انصرف عاد الضرب والصياح والضجيج فى انحاء القسم الى أشد ما كان عليهِ قبل حضوره . وصاح أحد المضروبين فى شدة ألمه بأنه لا بد ان يشتكى عمال القسم الى

« النيابة » فدخل أحد العساكر الى المعاون ليخبره بما يقول الرجل فوضعت أذنى عند الباب فسمعت المعاون يحادث نفسه بقوله :

« ما هذه الخدمة وما هذا الذل ولعنة الله على ضرورة الحاجة فى المعاش . ومع ذلك فالحمد لله اذ كان هذا المفتش من الانكليز ولم يكن من « أولاد العرب » فهو خير منهم لأن عجزه فى فهم اللغة وجهله بالعمل جعله يقتصر فى التفتيش على طربوشى ولحيتى ولو كان من « أولاد العرب » لاطّلع على الاختلال الواقع فى القضايا وما يرتكبه عمال القسم من مخالفة « الاصول » . ثم التفت الى العسكرى وسمع منه ماينقله اليه من قول ذلك الرجل الذى عزم على الشكاية الى « النيابة » فازداد همه واشتد غضبه فأمر بحبس المتهمين جميعاً أربعاً وعشرين ساعة والباشا داخل فيهم فذهبت الى المعاون وكلمته فيه ليطلقه بعد ضمانتى له فأبى ذلك وقال لى بوجه عبوس : الأَولى أن يبقى فى القسم إلى الغد حتى يُكشف على « السوابق » ثم يرسل من هنا الى النيابة . فدخل الباشا الحبس مع الداخلين

*
* *

قال عيسى بن هشام — ولما تركت صاحبى فى حبسه وذهبت الى دارى بتُّ طول ليلتى فى هم وأرق وقضيت رقادى فى اضطراب

وقلق لما أصاب الرجل من ضربات الدهر المتتالية وهو غريق فى دهشته وحيرته لا يدرك مضىّ الزمن ولا يدرى ما الحال ولا يعلم بتغيير الامور وما أحدثهُ الدهر بعد عهده وزوال دولته من تبدل الاحكام وانقلاب الدول . وكنت هممت أن أكاشفه بشرح الأحوال وتفصيل الأمور عند أول مصاحبتى لهُ لولا مادهمنا بهِ القضاء المحتوم فأوقعنا فيما ألمّ بنا . ثم فكرت بعد ذلك فكان من حسن التدبير وسداد الرأى عندى ان يبقى الرجل جاهلاً بالامر حتى ينتهى من خطبه ويكون جهلهُ بتغيير الأحوال قائماً بعذره فى التخلص من محاكمته ثم عقدت العزيمة على انى لا أفارق صحبتهُ بعد ذلك حتى أريهُ مالم يرَ وأسمعه مالم يسمع وأشرح لهُ ماخفى عليهِ وغمض من تاريخ العصر الحاضر لاطّلع على ما يكون من رأيهِ فيهِ عند مقابلتهِ بالعصر الماضى ولأعلم أى العهدين أجلّ قدراً وأعظم نفعاً وما هو الفضل الذى يكون لأحدهما على الآخر . فبكرت الى القسم فى اليوم الثانى وحملت معى ما يليق بصاحبى من الثياب ليرتديها عند خروجهِ من حبسهِ فوجدت العسكرى يستعد بهِ للذهاب الى قلم « السوابق » فى دار المحافظة فلما بصر بى نادانى بقوله :

(الباشا) ـ ما هذه الخطوب والملمات قد كنت أظن ان ماوقع

لى فى أمس كان اسخط ولىّ نعمتنا الداورىّ الأعظم وغضبهِ على عبده بمكيدة كادها لى أعدائى أو فرية افتراها حسادى فلذلك صبرت لحكم الضرورة وامتثلت على تلك الصورة حتى اتمكن من التشرف بالاعتاب والمثول بين يدى مالك الرقاب فأزيل الشبهة وأنفى الريبة وابرأ لهُ مما رمانى بهِ الساعى والواشى وأجلى لهُ حقيقة عبوديتى واخلاصى فيضاعف علىّ رضاهُ لحسن ماقمت بهِ من الطاعة فى احتمال هذا الهوان

طال منى تحملٌ خلتُ أنى قابض من أذاته فوق جمر

ثم انى أعمد بعد ذلك الى إفشاء العقاب عقاب القتل والصلب فى هؤلاء الادنياء السفهاء والأشقياء الأغبياء جزاء مااجترؤا عليهِ فى معاملتى واقترفوه من جهل منزلتى ولكنى سمعت فى الحبس — وياسوء ما سمعت — وعلمت — وياشر ماعلمت — ان الدول دالت والأحوال حالت وانكم أصبحتم فى زمان غير ذلك الزمان وفى حال من الفوضى يصح فيها قول ذلك المكارى : « انهُ هو والباشا فى المنزلة سواء » وتلك التى :

تُصمُّ السميعَ وتعمى البصير ويُسأل من مثلها العافيه

فاللهمَّ عفوك وصفحك هل قامت القيامة وحان الحشر فانطوت

المراتب وانحلت الرئاسات وتساوى العزيز بالذليل والكبير بالصغير والعظيم بالحقير والعبد بالمولى ولم يبق لقرشيّ على حبشيّ فضل ولا لأمير منا على مصريّ أمر . ذلك مالا يكون ولا تحتملهُ الظنون . ثم اعلم أيها الرجل ان ذنب أولئك السفهاء فيما جنوهُ عليّ لا يعدّ في جانب ذنبك عندي الا كالخردلة من الصخر والقطرة من البحر لكتمانك عليّ الامر حتى دخلت بي بلداً هذا حاله وذاك شأنه وأعوذ بالله منك ومن شياطين الجن

(عيسى بن هشام) - انما أقول لك أيها الأمير أيضاً ما قالهُ موسى للخضر عليهما السلام « لا تؤاخذني بما نسيتُ ولا تُرهقني من أمري عسراً » ولقد نزل بي من الخوف والذهول عند انتشارك من القبر ماأورثني التبلد والتحير ومنعني عن تبصرتك بالواقع وتنبيهك الى ماتغيرت بهِ الحال من بعد عهدك وما كدت أنتبه الى تعرفك بها حتى دُهينا بذلك المكاري ودُهمنا بتلك الحادثة فلا ذنب لي فيما أتيت والعذر مقبول لديك فاصبرْ على ماتلاقيه . واحتمل ما أنت فيهِ . وتقبَّل القضاء . بوجه الرضاء . ولا تأسَ على مافات . لتكفر عنك السيئات

(العسكري للباشا) - هلم الى السوابق

(الباشا) ـ سبحان العزيز القادر أترى قد زال عنى بؤسى وانقشع نحسى ورجع الىّ عزى فجاءونى بموكبى وخيلى

(عيسى بن هشام) ـ ليس المقصود « بالسوابق » تلك الجياد الصافنات . والعتاق الصاهلات . وانما هو ديوان تقيدّ فيه سحنة المتهم وسماه . ويكشف فيه عما جنته يداه

(العسكرى للباشا) وهو يسحبهُ ـ لا تُطل فى الكلام وامش معى ساكتاً ساكناً

(الباشا) وهو يمتنع ـ ما الحيلة فى القضاء وما العمل فى المقدور وكيف الخلاص وأين النجاة ومن لى بالموت ثانية ليردنى الى راحة القبر

(عيسى بن هشام) وهو يتضرع ـ أقسمت عليك بدفين القلعة ووقع سيوفك فى المعمعة الا ماقبلت نصيحتى وعملت بمشورتى فلا تعارض ولا تعاند فان الامتناع لا يفيد ولا يزيدنا فى ملمتنا الا شدة . والعقلُ يرشدنا ان نسلم للاقدار حيث لا عمل وان نلبس لكل حالة لبوسها . إما نعيمها وإما بوسها

(الباشا) ممتثلاً ـ اللهمّ لا رأى مع القضاء

قال عيسى بن هشام ـ وسرنا مع العسكرى فوصلنا الى « قلم السوابق وتحقيق الشخصية » فرأى الباشا هناك من الشدة ماتنخلع

له القلوب وتشيب منه النواصي فجردوه من ثيابه وفحصوا بدنه عضواً عضواً وقاسوا وجهه وجسده وحدقوا في عينيه وصنعوا به ما صنعوا وهو يتنفس الصعداء حتى انتهوا من عملهم. ثم سألوا عن ضمانته فلم يجدوا له ضمانة لأن المعاون قاتله الله رد شيخ الحارة عن التصديق على ضمانتي ليجوزله الحبس. فأرسلونا مع العسكري الى النيابة. ولما دخلنا على النائب وجدنا أمامه قضايا جمة وأصحابها مزدحمون ينتظرون دورهم فانفردنا ناحية ننتظر دورنا أيضاً والتفت الي صاحبي يسأل ويستفهم:

(الباشا) - أين نحن الآن ومن هـذا الغلام وما هذا الزحام

(عيسى بن هشام) - نحن أمام النيابة وهـذا عضو النيابة وهؤلاء أرباب الدعاوى

(الباشا) - وما هي النيابة

(عيسى بن هشام) - النيابة في هـذا النظام الجديد هي سلطة قضائية مكلفة باقامة الدعاوى الجنائية على المجرمين بالنيابة عن الهيئة الاجتماعية والغرض من إنشائها ان لا تبقى جريمة بلا عقوبة ووظيفتها أن تدافع عن الحق فتظهر ذنب المذنب وتكشف عن براءة البريء

(الباشا) - وما هي الهيئة الاجتماعية التي تنوب عنها

(عيسى بن هشام) — هي مجموع الامة

(الباشا) — ومن هو هذا الأمير العظيم الذى اتفقت الامة عليه لينوب عنها

(عيسى بن هشام) — ليس هذا الذى تراهُ بأمير ولا بعظيم من عظماء الأمة وإنما هو أحد أبناء الفلاحين أرسلهُ أبوهُ الى المدارس فنال الشهادة فاستحق النيابة فتولى فى الأمة ولاية الدماء والاعراض والاموال

(الباشا) — نعمت المنزلة عند الله منزلة الشهادة وللشهيد فى الجنة أعلى الدرجات ولكن كيف تصور عقولكم — وأظنكم فقدتموها — أن تجتمع الشهادة فى سبيل الله والحياة فى الدنيا لأحد من الناس. والذى يفوق ذلك عجباً ويزيد العقل خبالاً أن يحكم الناسَ فلاّحٌ وينوب عن الأمة حرّاث . ويشهد الله أننى خرجت من شدة الى شدة وانتهيت من خطب الى خطب فسلّمت وصبرت ولكن لا صبر لى على هذه الخارقة فما أعظم الفاجعة وأشقّ النازلة . لقد فنِىَ منى الصبر . ومن لى بفِناء القبر

(عيسى بن هشام) — اعلم أن هذه الشهادة ليست بشهادة الجهاد بل هى ورقة يأخذها التلميذ فى نهاية دروسِه ليثبت بها أنه

تلقى العلوم وبرع فيها . وقيمتها لمن يريد الحصول عليها ألف وخمسمائة فرنك

(الباشا) - مه مه كأنك تريد الإجازة التى يجيزها علماء الأزهر لمن تلقى عليهم العلوم من الطلبة وفاق فيها . غيراننا ماسمعنا فى دهرنا بهذه الاثمان وماعهدنا ان الأزهر الشريف يعرف ماهى الفرنكات أو نفقه من العُملة سوى الجرايات

(عيسى بن هشام) - ما هذه العلوم بعلوم الأزهر ولكنها علوم افرنجية يتلقونها فى بلاد الافرنج . والفرنك عملة تلك البلاد . ويقال لتلك القيمة عندهم رسم الشهادة . وهى قيمة لاتذكر بالنسبة الى كثرة فوائدها لأن القاعدة فى هذا النظام « ان الشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة » وصاحب الشهادة إذا قدّمها للحكومة يكون لهُ الحق فى الاستيلاء على مرتب وظيفة يزيد على الدوام ويرقى

(الباشا) - الآن كدت أفهم . وأظن هذه الشهادة تعادل « أوراق الالتزام » و « سراكى الروزنامجه » فى أيام حكومتنا

قال عيسى بن هشام - وبينا نحن فى هذا الحديث اذابشابين رشيقين رقيقين قد أقبلا يخطران فى مِشيتهما والطيبُ ينتشر فى الجو من

أردانهما وهما يصعّران خدهما كبراً واختيالاً . ولا يلتفتان الى مَن حولهما تيهاً وإعجاباً . أحدهما يشق الهواء بعصاه . والثاني تلعب «بالنظارة» يداه . فشخصت فيهما الانظار . وتحولت نحوهما الأبصار . والحاجب من أمامهما يدفع الناس من طريقهما حتى وصلا الى باب النائب فقام لهما عن مجلسه وأمر بأرباب القضايا ان ينصرفوا من حضرته واشتغل الحاجب بسحبهم وجرهم وطردهم ونهرهم واشتغل النائب بطيّ المحاضر ورفع المحابر حتى خلا لصاحبيه من كل شغل وعمل

(الباشا لعيسى بن هشام) — يظهر لى ان هذين الشابين من أكبر أولاد الأمراء أو أنهما مفتشان للنيابة كما رأينا المفتش للقسم

(عيسى بن هشام) — ما أظنهما الا زائرين من قرناء النائب فى المدرسة كما يظهر لى من شمائلهما

(الباشا) — وهذا أعجب وأعجب

قال عيسى بن هشام — وأردت أن أخبر خبرهما وأكتشف أمرهما فانتهزت فرصة التزاحم بين الناس واشتغال الحاجب بهم فانزويت فى عقب الباب من وراء الستار بحيث أسمع وأرى فسمعت هذه المحاورة بينهم :

(الزائر الأول) بعد السلام والجلوس — لماذا تركتنا أمس

أيها الخبيث من قبل ان ينتهى اللعب

(النائب) ـ لانهُ كان قد مضى من الليل أكثرهُ وعندى من القضايا مايضطرنى الى التبكير

(الزائر الثانى) ـ وهل سمع أحد ان القضايا تعوق الانسان عن مجالسة الاخوان . ومثل هذا العذر يُعتذر بهِ لغير الواقفين على أعمال النيابة وقضاياها أَوَلم تعلم ان فلاناً وفلاناً وسواهما من أقرانك لا تستغرق منهم قضايا اليوم كله اكثر من ساعة واحدة وأخص بالذكر منهم فلاناً فانهُ يكتفى بأن يمر عليها بلحظة منهُ ويستغنى عن مطالعتها ويرتكن على توقد ذهنه ونباهة قريحته وكثرة تمرنه للاحاطة بفهمها . ومادام الشقاق والنزاع قد انتهى أمره بين النيابة و « البوليس » فالأَولى الاكتفاء بمحاضر البوليس أو إعادتها اليهِ لاستيفائها ولا محل لتجديد التحقيق بعدهُ وتضييع الوقت سدى فيما عساهُ أن يولد الشقاق أو يعيد النزاع مرة أخرى

(النائب) ـ ذلك ما أفعله ولكن لابد من التمسك « بالظواهر والاصول » على قدر الامكان

(الزائر الاول) ـ أفما عندك الكاتب يقوم فى ذلك مقامك ويكفيكهُ

(النائب) ـ صدقت ان الكاتب ليكفى . والقول الصحيح

ان السبب فى مفارقتكم أمس وفى ترك اللعب هو أننى خسرت ما كان معى من مرتب الشهر ولم يبق منه الا النزر اليسير ونحن لا نزال فى أوائله

(الزائر الاول) — تلك هى عادتك فى ادعاء الخسارة دائما مهما ربحت ومهما كسبت وما سمعتُ منك فى عمرى الا انك خسران . أفلم تربح منى فى « اليد الاخيرة » التى كانت بيننا خمسة جنيهات

(النائب) — وحقّ شرفى وذمتى ومستقبلى انى قمت من عندكم أمس بالخسارة

(الزائر الثانى) — ما علينا . ولكن قل لى هل أنت لا تزال على وعدك معنا فى التوجه الى صاحبنا لمشاهدة الرقص البلدى من فلانة المشهورة

(النائب) — أسألك المسامحة فانه لا يمكننى ذلك أولاً لأن هذا الرقص الذى يعجب أولاد البلد والفلاحين لا يعجبنى وثانيا لانى دعوت «مادموازيل فلانة» المشخصة فى «الاوبرا» مع فلان وفلان المشخصين لتناول الغداء فى الازبكية عند «سانتى» وسنذهب بعد ذلك الى «خان الخليلى» و «قصبة رضوان» و «مقابر الخلفاء» وبعض

المحلات القديمة من البلد للتفكه والتسلى

(الزائر الاول) — دعواك الآن أنه لم يبق معك من مرتب الشهر إلا النزر اليسير فكيف لك بما يلزم لمثل هذا من النفقات

(النائب) — فاتنى أن أذكر لكما ان معنا فلاناً المحامى ومعه صاحبهُ العمدة

(الزائر الثانى) — وكيف يميل هذان الشخصان الى مثل هذا المجلس الأفرنجى أو يستريحان لهُ وهما لا يعرفان شيئاً من اللغات والاصطلاحات الاوروبية

(النائب) — ألم تعلم يا أخى أن أمنية المحامى أن يكون مصاحباً لاهل القضاء وأمنية الفلاح ان يحتك بنا والرغبةُ عند أمثالهما عظيمة فى حضور المجالس الافرنجية وإن كلفهم ذلك ما كلفهم وخرجوا منها على غير فائدة لهم

(الزائر الاول) مقتضباً — من أين اشتريت هذا «الكراڤات» (رباط الرقبة)

(النائب) — ما اشتريته يا «مونشير» (عزيزى) وإنما جاءنى مع ملابسى من عند الخياط فى باريس وهو من آخر طرز

(الزائر الثانى) — هل بلغك زواج فلان بمعشوقته

(الزائر الاول) ـ هل ركبت مع فلان فى الاوتوموبيل (الدراجة الـكهربائية)

(النائب) ـ قد وقفت لكما على سبب انتحار ابن فلان المتمول

(الزائر الاول) ـ أنا أعرفه فهو الغرام

(النائب) ـ لا

(الزائر) ـ المال

(النائب) ـ لا

(الزائر) ـ المرض

(النائب) ـ لا . وانما هى سنة جديدة فى شبان باريس اقتدى المسكين بها

(الزائر الاول) ـ وأنا وقفت لكما على سبب استعفاء فلان من وظيفته

(النائب) ـ سيرته

(الزائر) ـ لا

(النائب) ـ وطنيته

(الزائر) ـ لا

(النائب) ـ فرنسويته

(الزائر) ـ لا . وانما هى انكليزيته

قال عيسى بن هشام فسئمت من هذا الكلام الفارغ والحديث المقتضب وانتهزت دخول الحاجب فخرجت من مكمني وعدت إلى الباشا صاحبي فوجدت بجانبه أحد سماسرة المحامين قد التصق به وهو يحاوره فوقفت عن بُعدٍ أسمع ما يدور بينهما

(السمسار) ـ اعلم ان المحامى يدير القضاء فى يده بما يريد فيعاقب من يشاء ويبرئ من يشاء وما أعضاء النيابة وقضاة الجلسات إلا طوع إشارته ورهن كلمته وكالخاتم فى إصبعه فلا حكم إلا بقوله ولا قضاء الا بأمره وانت على ما أراك رجل غريب حقيق بالرحمة والشفقة ولا يليق بالمروءة أن أدعك طعمة فى أيدى بعض المحامين من أهل الطبقة السفلى الذين اعتادوا سلب أموال الناس بطرق الغش والاحتيال وكاذب الوعود والآمال ولى صاحب معروف بين طائفة المحامين بالصدق والامانة وله مقام سامٍ بين القضاة والحكام فهو صديق الناظر وجليس المستشار ونديم القاضى وخدين النائب ووكيل «البرنس» ولوشاهدتَهُ ياسيدى مرة واحدة فى اجتماعه معهم فى السهر والسمر ورفعِ الكلفة بينه وبينهم فى ساعات الأنس وأوقات السرور يُشَارِبهُمُ ويؤاكلهم ويمازحهم ويفاكههم ويناظرهم ويقامرهم لأيقنتَ فى الحال ان كل طلب له يجاب وليس لأمره

من رادّ فالمجرم برئ والبرئ جانٍ على حسب المراد . فقل لى حينئذ عن مقدار ما تستطيع دفعه من « مقدم الاتعاب » فى تبرئتك من تهمتك والانتقام لك من عدوك

(الباشا) — أنا لا أعرف المقدم ولا المؤخر ولم يخبرنى صاحبى عن هذا الحاكم القادر الذى تصفه لى فإذا استفهمتُ عنه .....

(السمسار) مقاطعاً — لا لزوم للاستفهام من أحد فها هو حضرة المحامى قد أقبل لمقابلة « النائب العمومى » فانا أستوقفه لحظة للنظر فى شأنك

(ويسرع السمسار الى مكالمة المحامى بعد أن يوسع له فى الطريق ويسلم عليهِ بسلام الامراء حتى يصل بهِ الى جانب الباشا)

(المحامى) بصوت عال — انا لا أستطيع قبول التوكيل عن أحد فى هذه الايام لتراكم الاعمال وتزاحم القضايا فلم يبق عندى وقت للطعام وللشراب فكيف تكلفنى أن أقبل التوكيل عن صاحبك فى هذه القضية الصغيرة وقد رفضت فى صباحى هذا خمس قضايا لها شأن عظيم

(السمسار) — سألتك بحق الانسانية وحرمة المروءة وعما جبلت عليه من الحنو والشفقة على الضعفاء ان تأذن لأحد عمال مكتبك بمباشرة هذه القضية ان لم تتنازل لمباشرتها بنفسك فان المقصود هو تأثير اسمك وصيتك فى المحكمة

(المحامى) ـ لا أرى فى ذلك بأساً للعناية بك والشفقة على صاحبك

(وينصرف المحامى بعد مصافحته للباشا)

(السمسار للباشا) ـ هلمّ فادفع عشرين جنيهاً

(الباشا) ـ ليس عندى الآن شئ من الدراهم

(السمسار) ـ اعطنى تحويلاً

(الباشا) ـ أنا لا أفهم لك كلاماً فاذهب عنى فقد ضقت بك ذرعاً

(السمسار) ـ كيف أذهب عنك وقد تم لك الاتفاق مع حضرة المحامى أمامى

(الباشا) ـ أنا لم أتفق مع أحد فاتركنى وانصرف

(السمسار) ـ كيف تنكر اتفاقك مع المحامى بعد أن وضعت يدك فى يده

(الباشا) ـ عفوك اللهم ولطفك ! ومن يصبر على هذه الحال . أشرت بيدى فى حديثى مع صاحبى فوقعت فى حادثة المكارى وها أنا قد صافحت المحامى فصرت مدينًا بعشرين جنيها ففى أى العوالم انا وبين أى المخلوقات

قال عيسى بن هشام ـ ولما رأيت لوائح الغضب بدت على وجه الباشا خشيت أن يقع مع السمسار فى حادثة أخرى فأدركته وبخت الرجل

على احتياله وتوعدته بالشرور ورَفع الأمر الى النائب العمومى إن لم ينتهِ عنا. فخلَّفنا وانصرف. ونادى الحاجبُ أرباب القضايا فدخلنا فوجدنا النائب لازال لاهياً فى حديثه مع زائريهِ وأشار لنا بالتقدم الى الكاتب فتقدمت مع صاحبى وشرعت فى بسط القضية وبيان ماقاسيناه من سوء معاملة البوليس وقبح افترائه فالتفت النائب الى الكاتب وقال له: لاتقبل كلاما فى البوليس ولا تسمع فيه طعنا بل خذ بأقواله واستمسك بتحقيقه. ثم نظر فى الساعة فوجد الميعاد قد حلّ فأخذ عصاه ولبس طربوشه وخرج يهرول مع صاحبيه. فقلت لصاحبى الآن وجب أن أذهب للبحث عن أحد المحامين الصادقين من أصحابى للمدافعة عنك

(الباشا) – قل لى بالله ماهو المحامى عندكم

(عيسى بن هشام) – هو وكيل الحكم والمخاصمة يتكلم مكانك بما تعجز عنه ويدافع عنك بما لم تعلمه ويشهد لك بما لم يخطر ببالك وصناعته هذه صناعة شريفة يمارسها كثير من الفضلاء اليوم بيننا ولكن قد دخل فى الصناعة جماعة ليسوا من أهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للتكسب مثل هذا المحامى وسمساره. وهؤلاء بعينهم هم الذين يعنيهم علاء الدين الكندي بقوله:

ماو كلاءهم الحكام إن خاصموا ... الا الشياطين أولو باس واصب النقل

قوم غدا شرهم فاضلاً ... عنهم فباعوه على الناس

*
* *

قال عيسى بن هشام — ولما حل يوم الجلسة رافقت الباشا الى المحكمة. فوجدنا فى ساحتها اقواماً ذوى وجوه مكفهرة. وألوان مصفرة. وأنفاس مقطوعة. وأكف مرفوعة. وشاهدنا باطلاً يذكر. وحقاً ينكر. وشاكياً يتوعد. وجانياً يتودد. وشاهداً يتردد. وجندياً يتهدد. وحاجباً يستبد. ومحامياً يستعد. وأماً تنوح. وطفلاً يصيح. وفتاة تتلهف. وشيخاً يتأفف. وسمعنا ألفاظاً متناقضة. وأقوالاً متعارضة. ورأينا المحاميين. عن الخصمين. يشحذ كل منهما لسانه. ويقدح جنانه. استعداداً للنزال. فى ميادين المقال. وتأهباً للدفاع. فى مواقف النزاع. ليخرج كلاهما بغنيمة البراءة فى الحكم. ورفع التهمة والجرم. فانزويت بصاحبى. ومحامينا بجانبى. يذكر لنا «أصولاً مرعية». و «مسائل فرعية». وظروفاً وأحوالا. وشروحاً وأقوالا. وموادّ وفقرات. فى الجنح والمخالفات. ثم تصفح محاضره. ويقلب دفاتره. ويقسم لنا بوكيد الايمان. ان الباشا من تهمته فى أمان. وأنا أجيب صاحبى عن كل سؤال.

بما تقتضيه الحال . ولما سألنى عن هذه الملحمة . قلت له هى المحكمة

(الباشا) — قد كان العهد بالمحكمة الشرعية وبيت القاضى على غير ما أرى فهل أصابها الدهر فيما اصاب بالتغيير والانقلاب

(عيسى بن هشام) — هذه هى المحكمة الاهلية لا المحكمة الشرعية

(الباشا) — وهل للقضاء بين الناس غير المحكمة الشرعية

(عيسى بن هشام) — للقضاء فى هذه البلاد على ماتشتهى محاكم متعددة ومجالس متنوعة . فمنها المحاكم الشرعية والمحاكم الاهلية والمحاكم المختلطة والمجالس التأديبيـة والمجالس الادارية والمجالس العسكرية والمحاكم القنصلية دع المحكمة المخصوصة

(الباشا) — ماهذا الخلط . وماهذا الخبط . وسبحان الله هل أصبح المصريون فرقاً واحزاباً . وقبائل وافخاذاً . وأجناساً مختلفة . وفئات غير مؤتلفة . وطوائف متبددة . حتى جعلوا لكل واحدة . محاكم على حدة . ماعهدناهم كذلك فى الأعصر الأول . مع دولات الدول . وهل انطمست تلك الشريعة الغراء . واندرست بيوت الحكم والقضاء . اللهم لا كفران . ولعن الله الشيطان

(عيسى بن هشام) — ليس الأمر على ماتتوهم وتتخيل فلم يتفرق المصريون فرقاً ولم يتوزعوا شعوباً بل هم أمة واحدة ولهم حكومة واحدة

يقضى نظام الأمور فيها بهذا النسق والترتيب فى القضاء والحكم. وأنا أشرح لك جملة الحال شيئاً قليلاً

أما المحاكم الشرعية فقد جُرِّدت من النظر والحكم فى عامة المخاصمات واقتصر العمل فيها على الأحوال الشخصية أعنى مسائل الزواج والطلاق وما يدخل فى هذا الباب

(الباشا) — تالله لقد فسد الحال وانحل النظام وكيف يعيش الناس ويستقر لهم حال بغير شرع الله وسنة نبيه وهل أصبحتم فى الزمن الذى يعنيه القائل بقوله :

قد نُسِخَ الشرعُ فى زمانِهمُ   فليتهم مثل شرعهم نُسِخوا

(عيسى بن هشام) — لم يُنسخ الشرع ولم يرتفع حكمه بل هو باقٍ على الدهر ما بقى فى العالم إنصاف وفى الامم عدل ولكنه كنز أهمله أهله ودرة أغفلها تجارها فلم يلتفتوا الى وجوه تشييده وتمكينه وتمسكوا بالفروع دون الأصول واستغنوا عن اللب بالقشور واختلفوا فى الأحكام وعكفوا على الاشتغال بسفاسف الأمور وتعلقوا من الدين بالأغراض الحقيرة والأقوال الضعيفة وتركوا الحقيقة الى الخيال وتعدوا الممكن الى المحال فكان من أكبر همّ العالم العلامة فيهم والحبر الفهامة منهم أن يبدع فى التفنن للإغماض فى الحق الأبلج والتعقيد فى الحنيفية السمحة

ولم ينتبهوا يوماً الى ماتجرى بهِ أحكام الزمن فى دورته ولم يفقهوا أن لكل زمن حكماً يوجب عليهم تطبيق أحكام الشرع على ماتستقيم بهِ المصلحة بين الناس بل ظلوا واقفين عند الحد الادنى لا يتزحزحون ولا يتحلحلون معتقدين أن الدهر دار دورته ثم وقف وأن الزمن تحرك حركته ثم سكن فلا أمل فيهِ ولا عمل فكانوا سبباً فى تهمة الشرع الشريف بخلل الحكم ووهن العقد وقلة الغناء فيهِ لانتصاف الناس فى معايشهم ومرافقهم على حسب ماتتجدد بهِ حالات الزمن وتتخالف عليهِ اشكال العصور. ومن هنا تولدت الحاجة إلى انشاء المحاكم الأهلية بجانب المحاكم الشرعية

(الباشا) ـ ماأظن الا أن يكون لأهل الشرع وأصحاب التفقه فى الدين عذرٌ واضح فى النزول الى هـذه الحال السيئة من معارضة معارض ومنازعة منازع أو من جور سلطان قاهر وعسف حاكم قاسر فصدّهم عن سواء السبيل وأرعاهم هذا المرعى الوبيل

(عيسى بن هشام) ـ لم يكن من ذلك شيء على الاطلاق فالإرادات مختارة والأفكار مطلقة والنفوس مطمئنة والأرواح آمنة وليس الفساد ناشئاً عن طوارئ الزمان وطوارق الحدثان ولكنه فساد فى التربية عمّ أمرهُ وانتشر وانحطاط فى الاخلاق عظم بلاؤه

واشتهر سكنت اليه نفوسهم وارتاحت به ضمائرهم وقد تمكن منهم داء التحاسد والتباغض ودبت بينهم عقارب التشاحن والتضاغن واستولى على قلوبهم الجبنُ والخوَر وعلى عقولهم الضعفُ والخبل وعلى نفوسهم الفتور والكسل فوصلوا الى الحال التي يرون بها السنة بدعة والبدعة سنة والفضيلة نقيصةً والنقيصة فضيلةً وأقاموا يتعسفون في الحكم ولا ينصفون . ويتفكهون في الدين ولا يتفقهون . وصرفهم حب المال . عن صالح الاعمال . وألهاهم مايدخرونه من زخرف الحياة الدنيا . عما يُدخر لهم في الدار الاخرى . فنحن الذين فعلنا كل هذا بأنفسنا . منا الاثم والوزر . وعلينا الذنب والإصر

وأما المحاكم الاهلية فهي القضاء الذي يقضي على الرعية اليوم في جميع الخصومات طبقاً لنص القانون

(الباشا) ـ القانون « الهمايوني »

(عيسى بن هشام) ـ القانون « الامبراطوري »

(الباشا) ـ ماعهدت منك ان تُعجم وتُبهم

(عيسى بن هشام) ـ لا إعجام ولا إبهام فهو قانون نابليون امبراطور الفرنسويين

(الباشا) ـ وهل عاد الفرنسيس فأدخلوكم تحت حكمهم وسلطانهم

مرة أخرى

(عيسى بن هشام) - لا . وانما نحن الذين أدخلنا أنفسنا بأنفسنا فى حكمهم فاخترنا قانونهم ليقوم عندنا مقام شرعنا

(الباشا) - وهل هذا القانون ينطبق حكمه على حكم الشرع الشريف والسنة المطهرة والاّ فانهم يحكمون فيكم بغير ما أنزل الله

(عيسى بن هشام) - المسألة فيها خلاف فالإجماع تام عند علماء الشريعة فى السر والنجوى على أنهُ مخالف للشرع وأنّ كل من يقضى به داخلٌ تحت نص الآية الشريفة: «ومن لم يحكم بما أنزل اللهُ فأولئك هم الفاسقون» . ولكن يظهر أنهُ مطابق عندهم للشرع فى حالة الجهر والعلن بدليل ما أعلنه أحد كبرائهم عند نشر هذا القانون وهو يومئذ مفتى نظارة الحقانية فقد أقسم الأيمان المغلظة على فتواه التى أفتاها بأن هذا القانون الفرنسوى غير مخالف للشرع الاسلامى . وان كان لا عقاب فى هذا القانون على الفسق واللواط مع رضا المفسوق به ان تجاوز عمره الثانية عشرة بيوم واحد . ولا عقاب فيهِ على من يزنى بأمه اذا هى رضيت به وكانت غير متزوجة . وهو الذى يعدّ الأخ مجرماً جانياً اذا تعرض لحماية عرض أخته والمدافعةِ عنهُ وكذلك بقية أهلها ماعدا زوجها . وهو الذى يحكم بالزام المدينين بدفع الربا

لمدانيهم . وهو الذى يقبل شهادة المرأة الواحدة على الرجل . وهو الذى لا يعاقب الزوج اذا سرق من امرأته ولا المرأة من زوجها ولا الولد من أبيه ولا الأب من ابنه

واما المحاكم المختلطة — وقضاتها من الاجانب — فهى تختص بالنظر فيما يقع من الخصومات بين الاهالى والاجانب وبين الاجانب وبعضهم فى الحقوق المدنية أعنى في قضايا المال . ولما كان الاجانب هم أحق وأولى بالغنى لسعيهم وجدّهم وكان المصريون أخلق بالفقر وأجدر لإهمالهم وتوانيهم كان معظم القضايا التى تحكم فيها هذه المحاكم لا بدّ أن تنتهى بسلخ المصرى من ماله وعقاره

وأما المجالس التأديبية فهى تختص بالنظر في عقاب الموظف الذى يخل بتأدية وظيفته — وهى تتألف فى الغالب من نفس الرؤساء الذين يتهمونه — وحدُّها فى العقاب الرفت والحرمان من المعاش وما بقى من درجات العقاب فالنظر راجعٌ فيه الى المحاكم الاهلية

وأما المجالس الادارية فهى تختص بعقاب من يخالف اللوائح والاوامر والمنشورات . وشرحُ ذلك يطول

وأما المحاكم العسكرية فهى تختص بالنظر فى عقاب المتهمين من الضباط والجنود وتحكم أيضاً على الاهالى فى مسائل القرعة وماشا كلها

وأما المحاكم القنصلية فهى تختص بالنظر فى الجنح التى تقع من الاجنبي على المصرى ومن الاجنبي على الاجنبي من جنس واحد. فاذا وقعت جناية من أجنبي على مصرى فليس لها فى مصر من حكم أو عقاب ولا تختص أى محكمة من كل هذه المحاكم التى عددتها لك بالنظر فيها بل يرتدّ الجانى بالقضية الى وطنه ومسقط رأسه وديار قومه فينظر قضاتهُ هناك فى أمره والغالب فى مثل هذه الحال عندهم أن ينتهوا بتبرئة المجرم بعلل معلومة مثل: « عدم ثقتهم بتحقيق البوليس المصرى ـ وضياع معالم القضية ـ وعدم توفر الشهود »

وأما المحكمة المخصوصة فهى تختص بمعاقبة الاهالى عند تعديهم على الجنود الاجنبية

(الباشا) ـ ما زلتَ تسمعنى الغريب وتفهمنى غير مفهوم. ومن أعجب ما سمعت ان المصريّ يتعدى على الجندىّ

قال عيسى بن هشام ـ وبينا نحن في هذا الحديث إذا ارتجّ المكان وتماوج الزحام وأقبل القاضى وهو فى عنفوان شبابه وصبا أيامه يتألق وجههُ حسنا. ويشا كل فى القد غصنا. وكأنه طائر فى مشيته. من نشاطه وخفته. ولما دخل الجلسة ذهبت أسأل عن دور القضية ثم عدت إلى صاحبي ومكثنا في الانتظار زمناً طويلاً الى ان جاء

الدور ونودى الباشا فدخل مع المحامى فى الجلسة وقام النائب فطلب الحكم على المتهم بمقتضى مادتى «١٢٤» و «١٢٦» عقوبات لتعديه بالضرب على أحد رجال «الضبطية القضائية» فى أثناء تأديته وظيفته وبالمادة «٣٤٦» مخالفات لتعديه على المكارى بالإيذاء الخفيف

(القاضى للمتهم) — «هل فعلت هذه التهمة»

(المتهم) — لم أفعل

قال عيسى بن هشام وجاؤا بى شاهداً فسألنى القاضى عما أعلمه فى هذه الواقعة فأجبته :

(عيسى بن هشام) — ان لهذه الحادثة قصة عجيبة وحكاية غريبة وهي انه ....

(القاضى) مقاطعاً — لا لزوم لتفصيل القصة والحكاية وقل لى عن «معلوماتك» فيها

(عيسى بن هشام) — «معلوماتى» هى اننى كنت أزور المقابر ذات ليلة فى وقت الفجر أبغى الموعظة وأنشد الاعتبار ...

(القاضى) مستثقلاً — لا لزوم لكثرة الكلام وأجبنى على النقطة التى سألتك عنها فقط

(عيسى بن هشام) — ذلك ما أفعله من حكاية الواقع وهو أنى

رأيت رجلا خرج من ...

(القاضى) متململاً - قلت لك انى لا أقبل التطويل ولا الشرح فى الواقعة ولـكن هل ضرب المتهمُ العسكريّ والحمّارَ أم لا

(عيسى بن هشام) - ما ضرب المتهمُ الحمّارَ وانما دفعه عنهُ من شدة إلحاحهِ وما ضرب العسكريّ وانما سقط عليهِ مما غشيهُ بغير عمد ولا قصد وهو يجهل ....

(القاضى) - يكفى . يكفى . هلمّ «النيابة»

(النائب) - «ان هذا الباشا متهمٌ بتعديه بالضرب على أحد رجال البوليس فى أثناء تأدية وظيفته بالقسم ومتهمٌ بالتعدى بالإيذاء على مرسى الحمار . والتهمة ثابتة من شهادة الشهود التى فى الاوراق واطلاع المحكمة عليها كاف وبناء عليهِ فالنيابة تطلب الحكم على المتهم بالمادة ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات وبالفقرة الثانية من المادة ٣٤٦ مخالفات وتطلب من عدالة المحكمة التشديد فى العقوبة لان حالة المتهم تستدعى ذلك فانهُ يتخيل ان رتبتهُ تجعلهُ خارجاً عن سلطة القانون وتخوله الحق فى اعتباره بقية الناس أصغر منهُ شأناً فيؤدبهم بنفسهِ مع عدم مراعاة حقوقهم وحرمة القانون ولاشك ان تشديد العقوبة عليهِ واجب لاعتبار امثاله بهِ وللمساواة فى العدالة وأفوض الامر الى المحكمة»

(القاضى للمحامى) ــ المحاماة . مع الاختصار

(المحامى) بعد أن يتنحنح ويقلب فى أوراقه ــ « انا نتعجب من ان النيابة العمومية استحضرتنا اليوم بصفة متهمين . ونقول ان أصل وقوع الجرائم ياحضرة القاضي والاصل فى وضع الشرائع والقوانين فى هذا العالم منذ البداوة وعصور الهمجية كان يقصد منه....

(القاضى) مشمئزا ــ اختصر ياحضرة المحامى وادخل فى الموضوع

(المحامى) ــ ... ومن المعلوم ان نظام الترتيب ياحضرة القاضى فى طبقات الهيئة الاجتماعيه يقضى ....

(القاضى) متضجراً ــ اختصر . يابك .

(المحامى)ــ الموضوع يقتضى ذلك

(القاضى متأففاً) ــ لالزوم له

(المحامِي متحيراً) ــ قالت النيابة العمومية (ويسرد شيئاً من أقوالها) ونحن نقول انا لو سلمنا جدلاً ....

(القاضى) مغضباً ــ يكفى . يابك . الموضوع

(المحامى) متلعثماً مضطربا ــ ان هــذا المتهم يا حضرة المحكمة الواقف الآن بين يدى القضاء هو رجل عظيم وأمير خطير من أهل العصر القديم وله حديث منشور فى الجرائد ــ وهذه أعداد جريدة

« مصباح الشرق » تطلعون عليها – وقد اعترضهُ فى طريقه أحد المكارين فدفعهُ عن نفسه والناس يعلمون إلحاح الحمّارة وسوء أدبهم ومثل هذه الطبقات التى ليس فيها تربية ...

(القاضى) نافداً صبره – قلنا اختصر . يابك

(المحامى) وهو يتصبب عرقاً – ... ولما توجه المتهم الى القسم أُغمى عليهِ فسقط بدون تعمد على عسكرى كان يكنس ارض القسم بغير ملابسه الرسمية . وعدالة المحكمة تقضى بعدم الالتفات الى دعوى البوليس : ولا عقاب على المتهم ألبتة لانهُ كان فى عصر غير عصرنا وفى نظام خلاف نظامنا ولم تبلغهُ دعوة القانون فهو يجهل أحكامه وحضرة القاضى الفاضل أدرى بالاحوال وان ....

(القاضى) منفعلاً ضارباً بيده على المكتبة – المحكمة تنورت يابك ولا لزوم للكلام مطلقا فهلم طلباتك

(المحامى) ساخطاً فى نفسهِ – طلباتنا هى اننا نطلب من باب أصلى الحكم ببراءة المتهم وان رأت المحكمة غير ذلك فنرجو استعمال الرأفة بالمادة ٣٥٢ عقوبات »

قال عيسى بن هشام – وبعد ذلك نطق القاضى بالحكم فحكم على الباشا بالحبس سنة ونصفا بمقتضى المادتين المذكورتين من قانون

العقوبات وبخمسة قروش والمصاريف بالمادة المذكورة أيضاً من المخالفات . فضاقت الارض بى وأظلمت الدنيا فى عينى وكدت اشترك مع صاحبى فى الذهول والاغماء لولا ان المحامى أكد لى كل التأكيد انهُ لابد من البراءة فى محكمة الاستئناف لعدالة رجالها ولكن يجب مع ذلك ان نرفع عريضة شكوى الى « لجنة المراقبة» لحسن التأثير فى القضية عند نظرها فى الاستئناف ثم قال لى اعلم ان السبب فى كل ماصدر عن هذا القاضى من المقاطعة والمعاكسة والاستعجال هو لأنهُ مدعوٌّ فى وليمة بعض رفقائهِ عند الظهر تماماً وأمامهُ فى دور القضايا ثلاثون قضية يريد أن يأتى عليها كلها حكماً قبل حلول الميعاد

وأطعنا إشارة المحامى فقدمنا عريضة الى « لجنة المراقبة» ولما طلبنا منهُ أن يتوجه معنا للسؤال عما تم فى أمرها تنحى عن استصحابنا وقال انهُ كان يود مباشرة ذلك بنفسه ولكن يمنعهُ ان يعلم القاضى بسعيه فى التظلم منهُ فيتعمد فى المستقبل أذاهُ وينصرف همهُ الى نكايته بسبب شكايته والمحامى فى حاجة دائمة الى اجتلاب رضا القاضى واجتناب غضبه فقبلتُ عذره ودعوت الباشا الى التوجه والسؤال فأعرض ونأى بجانبه وخاطبنى وهو يشتد فى الإباء ويلجّ فى الامتناع بقوله :

(الباشا) ـ يكفيني ما قد وصلت اليه من الذل والهوان وما قاسيته من نزول القَدَر وحلول الضيم بحكم القضاء من رافع السماء وأنا أربأ بنفسى ان يجتمع عليها ذلاَّنِ فى سلك واحد ذلُّ المتحمل للظلم المستكنّ للجور وذلُّ المشتكِي الضارع والمتظلم الخاضع . فإليك عنى لا تكن عوناً للخطوب . ومفتاحاً للكروب . وصدَقَ ابنُ يعقوب : « ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعوننى اليهِ » . ويعلم الله لولا عذاب النار . لفرّجت عن همى بالانتحار . وبودى لو يبدل حكم الحبس بالاعدام . لأخلص من هذه الأوصاب والآلام . وقد عشت دهرى ماعلمت أن السجن يكون فى عقاب الكبراء والامراء وانما هو يجرى عندنا فى عقاب الغوغاء من الناس والسفلة من العامة وللأمراء الامتياز على كل حال فان كان ثمّ لنا عقاب . فضرب الرقاب . وعندنا أن لقاء المنون . أليق بنا من ظلمة السجون

(عيسى بن هشام) ـ ما كنت أعهد من مثلك هذا الجزع والفزع . ولا أتوقع منك مثل هذا الخوَر والهلع . وأنت البطل الجرىّ والشجاع المقدم وما الشجاعة الا فى التصبر على المكروه والتجلد للخطوب تلقاها بوجهٍ طَلْق وصدر رحب وتترقب الفرج منها بعد الضيق :

ربما تجزع النفوس من الأمـــــر له فُرجةٌ كحلِّ العقالِ

وأنت عندى الحازم الأرشد . والعاقل المُسَدد . وما العقل الا نفاذ الرأى فى كشف المُلِمة . وتسديد الحيلة فى إزاحة الغُمة . وأمامنا اليوم طرق مسنونة ووسائل مشروعة لاغضاضة علينا فى ولوجها ولا مضاضة فى سلوكها . واعلمْ أن تبدل الازمان وتقلب الحدَثان يغير من مبانى الأمور ويكيف فى اعتبار الأشياء فما كان يُعتبر بالأمس فضيلة يُعتبر فى الغد رذيلة وما كان يعدّه الناس فى الزمن الماضى نقيصة يعدونه فى الحاضر كمالاً . وان كان الشرف فيما مضى يستمدّ رونقه من السطوة والمنعة ويقوم ركنُه على البأس والبطش فان الشرف اليوم كل الشرف فى الاستكانة للأحكام والخضوع للقانون . فهلم نسلك سبيله ونأخذ طريقه عسانا أن ننتهى بالخلاص والنجاة . ومن القواعد المقبولة لدى العقلاء والحكماء ان يقبل الانسان نظام الاحكام فى البلد التى اتخذها داراً واختارها مُقاماً

(الباشا) — لطعمُ الموت الزُّؤام . أهونُ من هذا الكلام . وللشربُ من حميم آن . آثرُ من احتمال هذا الهوان

قال عيسى بن هشام — فاعتلت عليّ وجوه الآراء . فى صرف صاحبى عن الامتناع والإباء . وكدت أيأس من بلوغ الغاية . فى

باب النصيحة والهداية . لولا أن سمعنا منادياً من باعة الجرائد ينادى، في طريقنا بصوت نكير . دونه صوت الحمير :

المؤيد والمقطم !! الاهرام ومصر !!

الاربعة بقرش

(الباشا) ـ ماذا أسمع من الاعاجيب ! أأصبحت المساجد والجبال والآثار والبلاد تباع في الاسواق بالمزاد

قد اختلّ الانامُ بغير شكّ   فَجدّوا في الزمان أو آلعبوهُ

(عيسى بن هشام) ـ ما هى بالآثار ولا بالبلاد ولكنها اسماء انتُحلت أعلاماً لهذه الجرائد اليومية

(الباشا) ـ لعلك تعنى «جرائد الصيارفة ويومياتهم» أو «جرائد الالتزام» ولكن ما وجه هذه التعمية في التسمية

(عيسى بن هشام) ـ ليس الامر كما ذهبتَ اليه ولكن الجرائد هى اوراق تُطبع في كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر تجمع وتسرد فيها الأخبار والروايات العامة ليطلع الناس على أحوال الناس وهى أثر من آثار المدنية الغربية انتقل الينا منها فيما انتقل . والأصل في وضعها انتشارُ الحمد للفضيلة والذم للرذيلة والنقدُ على ما قبح من الاعمال والحث على ما حسن من الأفعال والتنبيهُ الى مواضع الخلل

والتحضيض على اصلاح الزلل وتعريف الأمة بأعمال الحكومة النائبة عنها حتى لا تجرى بها الى غير المصلحة وتعريف الحكومة بحاجات الأمة لتسعى فى قضائها . وبالجملة فان أصحابها هم فى مقام الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر الذين أشارت الشريعة الاسلامية اليهم

(الباشا) — قد كنا نسمع فى زماننا بشىء من هذا القبيل يقال له «غازيته» وكانت تصدر عندنا واحدة منها بالتركية اسمها «روزنامه وقائع» وأخرى بالعربية اسمها «الوقائع المصرية» تدوّن فيهما المدائح والتهانى ويذكر فيهما انتقال الركاب العالى . ولكن ان كانت الجرائد قد ارتقت اليوم الى ما تزعم فلا بد أن يكون قد اشتغل بها واهتمّ بأمرها كبراء العلماء الاعلام وعظماء المشايخ الكرام ولنعمت الوسيلة وحسنت الطريقة فى تبليغ الناس ما يصلحهم فى معاشهم وينفعهم فى معادهم . فعليّ بواحدة منها

(عيسى بن هشام) — علماؤنا ومشايخنا — ويغفر الله لهم — هم أبعد الناس عن اجتياز هذه الطريق وممارسة هذه الصناعة وهم يرون الاشتغال بها بدعة من البدع ويعتبرونه فضولاً تنهى عنه الشريعة وتداخلاً فيما لا يعنى فلا يأبهون بها وربما اختلفوا فى كراهة

الاطلاع عليها أو إباحته . وقد مارس هذه الصناعة قوم آخرون غيرهم فيهم الفاضل وغير الفاضل واتخذها بعضهم حرفة للتعيش بها والتكفف على أى حالة كانت فلا تجد بينهم فرقا وبين أهل الحرف وباعة الاسواق فى الغش والخداع والكذب والنفاق والمكر والاحتيال للاستلاب والاغتيال

عَمَّروا موضعَ التصنع فيهم ومكانُ الإخلاص منهم خرابُ

فذهب منها الغرض المقصود وسقط شأنها بين العامة بعد أن سفل قدرها عند الخاصة وأصبح ما كان يُرَجى فيها من النفع دون ما تجلبهُ من الضرر . ومن العقلاء من لا يزال يرجو من الايام أن تدور يوما بتهذيب هذه الحال ورفع هذه الصناعة الى الدرجة اللائقة بها من الشرف وعلو القدر . والحكمُ كلهُ للقارئين فى الاقبال على ما ينفع والانصراف عما يضر « فأما الزَّبَدُ فيذهبُ جُفاءً وأما ما ينفع الناسَ فيمكُثُ فى الأرض » . ثم ناديت البائع فاشتريت منه أربعا وفتحت واحدة أقرأ على صاحبى نُتفاً من أخبارها فوقع نظرى فيها على كلام طويل عن الحكم على أحمد سيف الدين فأسمعتهُ ما جاء فيه من وصف ما يقاسيه هذا الأمير من خشونة العيش فى سجنه واستدرار الدموع لما يلاقيهِ هذا الغلام من ضيق السجن وهو من

سلالة الولاة والامراء . ثم قلت لهُ بعد انتهيت من أقوال الجريدة في استعطاف القلوب والتماس العفو :

(عيسى بن هشام) ـ انظرْ أيها الباشا كيف وصلتْ بنا الحال في المساواة وقد علمتَ ما اصاب « البرنس » أحمد سيف الدين من حكم المحاكم عليهِ فكيف تترفع نفسك بعد ذلك وتأبى الخضوع للقانون والامتثال لأحكامهِ والتوسل بطرقه للخلاص مما وقعت فيهِ

(الباشا) ـ ماهو «البرنس» . ومن هو أحمد سيف الدين

(عيسى بن هشام) ـ اما « البرنس » فهو لقبٌ أجنبي قديم كان تتقلب بهِ رؤساء الدولة الرومانية قبل أن يجترؤا على الأمة بانتحال لقب « امبراطور » ثم صار يطلق بعدهم في أوربا على اعضاء بيت الملك وعلى رؤساء الحكومات الصغيرة . ويطلقهُ اليومَ على أنفسهم اعضاء « العائلة الخديوية » ذكوراً وإناثاً وإنْ كان لاذكر لهُ بين الألقاب الرسمية في الدولة العلية . واما أحمد سيف الدين هذا فهو احمد بن ابراهيم بن احمد بن ابراهيم بن محمد علي جد الأُسرة الخديوية وعميدها وقد ارتكب جناية فسحبوهُ الى المحاكم واستحق العقاب الذي يقضي بهِ القانون فحكمت عليهِ المحكمة الابتدائية بالسجن

سبع سنوات فاستأنف يلتمس الشفقة والرأفة من قضاة الاستئناف فأنقصوا المدة الى خمس سنوات ثم استغاث بمحكمة النقض والابرام فلم تغثهُ . وقد انصرفت المساعى لاتفاق اعضاء الأُسرة الخديوية على التماس العفو عنهُ وذهبت أُمهُ يميناً وشمالاً فلم تبق وسيلة من وسائل الاسترحام الا سلكتها ولكن لا وسيلة مع القانون فان سيفه ماضٍ فى كل الرقاب وسلطانهُ نافذ فى كل الرؤوس . فهل يليق بك حينئذ أن تتكبر وتترفع عن التوسل والتظلم وتأنف نفسك من السعى وراء « لجنة المراقبة » و « محكمة الاستئناف » وقد علمت من تاريخ الأمراء وأولياء النعم ماعلمت

(الباشا) — نعم كيف لاتخرّ الجبال الشمُّ . اذا استنزلوا منها الأَرَاوِىّ العُصْمُ . وكيف لا تنشقّ القبور . وينفخ فى الصور . وقد انحطَ المقام وسفل القَذِر . وحقت كلمة ربك على مصر : « فجعلنَا عَاليهَا سافلَهَا » . وما دام حفيد محمد على فى السجن على ماتروى يخضع لحكم القانون ويتوسل بتلك الوسائل وتتشفع أُمهُ بتلك الشفاعات فما عليّ من عارٍ فيما تدعونى اليهِ فاذهبْ بى الى حيث تريد . وليتهم كانوا يقبلون منى ان أكون فداءً لابن سادتى وأولياء نعمتى فتضاف عقوبتهُ الى عقوبتى

قال عيسى بن هشام - فسرّنى من الباشا مطاوعته اياى وقبوله لنصيحتى ورضى بالتوجه الى نظارة الحقانية فسار معى وهو مختنق بدمعه متعثر بقدمه . ولما وصلنا اليها قصدنا مكان « لجنة المراقبة » وهممنا بالدخول فى حجرة المفتشين فمنعنا الحاجب وطلب منا «الكارت»

(الباشا) مستفهماً - مامعنى هذا اللفظ الأعجمى

(عيسى بن هشام) - «الكارت» بطاقة صغيرة يُطبع عليها الاسم والوظيفة أو الحرفة والصنعة يقدمها الزائر قبل الدخول ليكون المزُور بالخيار فى قبول الزيارة أو التملص منها

(الباشا) - لقد كانت أبواب التظلم مفتوحة فى أيامنا لكل من يطرقها . وكيف ينطبق هذا التضييق على ماتصفه لى من المساواة فى الحقوق والانصاف فى الأحكام

(عيسى بن هشام) - لايسلم الحال من زيارة زائر بغير شغل أو من لجاجة صاحب حاجة فوُضِعتْ هذه الطريقة ليتفرغ الحكام لاعمالهم

(الباشا) - ألم تكن هيبة الحكام وعزتهم بكافية لصدّ من ذكرتَ عن الدنوّ منهم والتجرىء عليهم

قال عيسى بن هشام - وبادرت الى القلم فكتبت ورقة باسم الباشا

وسلمتها للحاجب فجأنا بعد الانتظار بالإذن فدخلنا فوجدنا أمامنا فتىً من أجمل الفتيان . قد أرسل لحيته ُ قبل الاوان . يتموج تحتها ماء الشباب . كما يتموج الضوء وراء السحاب . ولما اقتربنا منه ُ بعض الاقتراب . رأيت فى يده جريدة حساب . يجمع فى أرقامها . ويضرب فى أعدادها . ثم يضع يده ُ على جبهته . كمن يتذكر رقماً سقط من حسبته . وعن يمينهِ كتاب أعجمىّ . وعن شمالهِ كتاب عربىّ . فكتاب اليمين « لفولتير » الفرنسوى الملحد . وكتاب الشمال لابن العربى المتصوف الموحد . ولما تقدمنا نحوه ُ سألَنَا عن حاجتنا فذكرت لهُ العريضة التي قدمناها وقصصت عليهِ القصة وشرحت لهُ ماعاملنا بهِ القاضى من سوء المقاطعة فى الشهادة والمرافعة . وهنا انبرى الباشا يخاطبه ُ بقولهِ :

(الباشا) ـ وأدهى مافى القضية وأمرُّ مافى الامر أن الذى تسمونه ُ « النائب » اعتبر رتبتى سبباً لأهانتى وما كنت أتخيل فى الاحلام ان الرتبة التى نلتها باقتحام الاخطار واحتمال المشاق تكون جريمة لاتغتفر وبرهاناً قاطعاً لديه فى تشييد دعواه ُ يطلب بهِ تشديد العقوبة . فقولوا لى بالله متى كانت هذه الرتبة الشريفة تستوجب العقاب والانتقام . ومِنْ أى صنف أنتم بين صنوف الانام

قال عيسى بن هشام ـ ودخل أحد الزائرين فى هذه الاثناء فحمدت الله على انقطاع الكلام بسبب دخوله والا فقد كان الباشا اندفع فيه . بما يتعذر تلافيه . وبعد أن سلم الزائر سأل عما حدث من الاخبار . فى وجه النهار . فناوله المفتش خطبة يتفكه بقراءتها . بعد ان بالغ له فى بلاغتها . وما كاد يلتفت الينا ثانيـة حتى وافاه أحد المفتشين من الاجانب فأطلعه على رسم فى ورقة زعم أنه نقشه فى أثناء مناقشة قانونية اشتد فيها الخصام واحتدّ الجدال فنظر الشاب فيه نظرة وضحك له ضحكة ثم تخلص منه للاشتغال بأمرنا فخاطب الباشا بكلام لطيف عذب ينبئ عن كرم نسبه وحسن أدبه وختم كلامه بقوله :

(المفتش للباشا) ـ قد اطلعت على ظروف القضية كلها فى « مصباح الشرق » فاما القاضى فقد يكون له العذر فى مقاطعة المحامي لان منهم من اعتاد أن يأتى فى مرافعاته بتاريخ نشأة الخليقة وتكوين الجمعية البشرية وما يجرى هـذا المجرى مما يطول شرحه ويملّ سماعه ولا يكون له أقل ارتباط بجوهر القضية وهم يستعملون ذلك فى أبسط القضايا وأدناها ليقتنع صاحب القضية ان المحامى لم يدخر لديه كلاماً يقال فى الدفاع عنه بقطع النظر عن ربح القضية

أوخسرانها . فترى أرباب القضايا يعتقدون ان المحامى لا يستحق أجره من المال . الا بكثرة مايقال . كالسلعة يكون تقدير ثمنها . على كمية وزنها . وقد توقف بعضهم مرة عن دفع المتأخر من الاتعاب لمحاميه بعد أن ربح لهُ القضية بدعوى انهُ لم يسمع منهُ كلاماً مطوّلاً فى المرافعة يستحق عليهِ الاجر سواء كان مفيداً للقضية أو مضرّاً بها وليس يخفى أن وقت القاضى قصير ثمين فلا يسعهُ الا المقاطعة على المحامى المكثر فى كلامه . وكذلك تكون المقاطعة على الشاهد لتنبيههِ الى وقائع الحادثة لئلا يفوتها بالخروج عنها . وحاصل الامر ان القاضى لم يخالف القانون بشيء فيما أتاهُ معكم

(الباشا) — ليت شعرى اذا اعتذرتَ عن القاضى فى مقاطعته فما هو العذر فى وضعهِ لى فى « قفص المتهمين » وتقييده لى بالقيام عند كل سؤال وأنا رجل شيخ مسنّ وقد قضيت عمرى فى المناصب العالية بالحكومة المصرية وبذلت دمى فى خدمة الاسرة الخديوية فهلاّ كان وقّرنى لسنّى واحترمنى لقدرى وأى قانون فى الدنيا يمنعهُ من ذلك وتوقير السن طبيعى واحترام المقامات أمر أصلى والله تعالى يقول : (ورفعنا بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ)

(المفتش) — ذلك ما يقضى بهِ القانون أيضاً فانهُ قائم على

المساواة بين الناس ولا فرق عندهُ فى المقامات والاعمار وهذا عين ما يأمر بهِ الشرع الشريف وعين ما يجرى على أعضاء الأُسرة الخديوية وخاصة الحكام اذا ارتكب أحدهم ما يؤاخذهُ القانون عليهِ . ولا معرّة عليك ولا غضاضة فى وقوفك أمام القاضى فانما تقف أمام النائب عن الحضرة الخديوية وهى أكبر الدرجات

(الباشا) — ان كان هذا حكمكم فى القاضى فما هو الحكم فى عضو النيابة الذى عيّرنى بشرف رتبتى

(المفتش) — انالم اطّلع بعدُ على أوراق القضية وتفصيل المرافعة ولكن ما انتشر فى «مصباح الشرق» من كلام «النائب» لا يؤخذ منهُ معنى التعيير بالرتبة بل كان غرضهُ أن يثبت أن الرتبة مهما عظم شأنها لا يكون من حقها هضم حقوق الضعفاء والامتياز بها على الناس أمام القانون فانها قاصرة على صاحبها لا تجعل لهُ سبيلاً على محروم منها . ولا بأس عليكم من كلام النائب فى هذا الباب فانهُ جرى بيننا مجرى العادة فى هذا العصر

(الباشا) — اذا كان للقاضى العذر وللنائب الحق فما هى فائدة تظلمى لكم وحضورى أمامكم أفما كان من اللائق أن تزجروا القاضى وتؤنبوا النائب وتفحصوا القضية وتتثبتوا من بطلان التهمة

وتنقضوا ذلك الحكم أمامهما

(المفتش) — ليس ذلك من اختصاصنا . واذا وقع من أحد رجال المحاكم ما يخالف واجب وظيفته فالنظر فى أمره موكول الى «مجلس التأديب» ولا سبيل لرئيس على مرؤوس إلا بحكم من المحكمة . وأنا آسف غاية الأسف لعجزنا عن التصرّف فى قضيتك . والحكمُ فيها راجعٌ الى محكمة الاستئناف وحدها

قال عيسى بن هشام — وكنت أشاهد فى أثناء هذه المحاورة شاباً آخر بجانبنا من المفتشين يسطع «طربوشه» احمرارا . ويقلب طرفه ازورارا . تلوح على وجهه مخايل الامارة . ولا تنفك يدُهُ فى رفع وخفض (للنظارة) . وتشهد عليه سيماهُ بالتفنن فى التدبير . وتدل على قوة الدهاء والتفكير . فلما وصلنا الى حيث وقف بنا الكلام رأيناهُ ينادى الحاجب ويقول لهُ :

(المفتش الثانى) — علىَّ «بدللوز» و«جارو»

(الباشا لعيسى بن هشام) — هل هذان الاسمان يطلقان على القاضى والنائب وهل ترى هذا الشاب هبَّ للانتصاف لى منهما

(عيسى بن هشام) — هذان اسمان لكتابين فى فقه القانون بدل (ابن عابدين) و(الهداية) فى فقه الشرع

وحضر خازن الكتب بالكتابين فردّ المفتش له أحدهما وقال له: ما طلبت «بودرى» بل طلبت «جارو» . ولما جاءه به أخذ يبحث في الكتابين طويلاً ثم نظر للخازن نظرة اليائس وقال: ائتنى «بفوستن هيلى» فأتاه بكتاب آخر فخرج منه بعد النظر الطويل الى المناقشة مع زميله باللغة الفرنسوية وانتهى الامر بينهما أن قالا للباشا معاً: ليس أمامك الا الاستئناف فى قضيتك وأما ما يختص بالقاضى والنائب فسنضع عنه « نُوته » (مذكرة) ونقدمها الى اللجنة عند انعقادها فاذا تبين لها أقل خلل فى تصرفهما أصدرت منشوراً الى جميع المحاكم بعدم اتباع ذلك فى المستقبل

ثم ودّعانا بالاحترام والتعظيم وخرجنا والباشا يقول:

(الباشا) — قد كُتب علىّ ان لا اخرج من همّ الا الى همّ ولا أنتهى من كدر الا الى كدر حتى كاد يصفو بالى ويخلو خاطرى لكثرة ما تراكم علىّ من الهموم والاحزان:

فإنى رأيتُ الحزن للحزن ماحياً ... كما خُطَّ فى القرطاس رسمٌ على رسم

ومن البديع الغريب فى أمر هذه الحكومة الحاضرة انى ما وضعت قدمى فى دائرة من دوائرها الا ورأيت أمامى غلماناً وفتياناً يتولون أمورها ويتصرفون فى أعمالها فهل خُلق المصريون خلقاً

جديداً أم صاروا فى الجنة استوت فيها الاعمار

(عيسى بن هشام) ـ لا تعجب من تقلد الشبان لمناصب الحكومة فان نظام هذا العصر يقضى بذلك وهم يزعمون انهُ ليس في استطاعة الكهول والشيوخ ان يقوموا بأعباء المناصب لخلوهم عن علومها الجديدة وجهلهم بفنونها الحديثة

(الباشا) ـ كيف يدَّعون ان العلم ينحصر فى الشبان دون الشِّيب وما عهدناه الا فى مَنْ أحنت السنون ظهورهم وبيَّضت التجارب مفارقهم فابتسم فيها بياض الرأى والادب

(عيسى بن هشام) ـ هم يقولون ان العلم والمعرفة لا يختصان بسن دون سن ولا عمر دون عمر وربما كان الشاب أنفذ سهماً في حلبة العلوم وأجمع لشتات الفنون لما يختص بهِ من حدة الذهن وسرعة الادراك فاذا انصرف بهمتهِ الى الدرس كان نصيبه منها أبلغ من نصيب الكهول والشيوخ وأغناه ذلك عن طول الممارسة وكثرة التجارب التي يمتاز بها ذوو الاسنان والاعمار

ليس الحداثةُ عن علمٍ بمانعةٍ قد يوجد العلمُ فى الشبان والشِّيبِ

(الباشا) ـ ولنرجع الى شأننا فقد اتبعت اراءك وامتثلت لنصائحك وعرضنا أمرنا للجنة المراقبة فخرجنا منها بالخيبة كما ترى فليس لنا

بعد هذا التعب الا الركون الى راحة اليأس ولم يبق لك بعد اليوم وجه فى أى احتجاج وجيه توجهنى بهِ وتسحبنى معك للسعى والتظلم أمام الحكام

(عيسى بن هشام) - لا تيأس ولا تقنط فان أمامنا محكمة الاستئناف ولى اعتماد عظيم على إنصافها فى الاحكام . ولو خاب فيها الامل على الفرض والتقدير فلا يزال عندنا باب العفو مفتوحاً نلتمسهُ بوساطة ناظر الحقانية

(الباشا) - لاتذكر لى من الآن حاكما ولا ناظراً فقد سئمت من وقوفى أمام هؤلاء الغلمان والشبان مهما بالغت لى فى الوصف واستشهدت فيهم بالشعر

(عيسى بن هشام) - ليس ناظر الحقانية الذى أذكره لك من صف هؤلاء الشبان وطرازهم بل هو رجل كهل عاكف على العبادة منكبٌّ على الاوراد منصرف الى الاذكار . يمسى ليلهُ قائما . ويصبح نهارهُ صائما . فبين السبحة وأصابعه عهد وميثاق . وبين السجادة وجبهته ارتباط والتصاق . وبالجملة فهو يذكّرنا فى هذا العهد الجديد بعهدكم القديم . وأبوه رجل من أكابر رجالكم اسمهُ حسن باشا المناسترلى .

(الباشا) - حسن المناسترلى ! ! ذاك خليلى وقرينى وصاحبى وخدينى ورفيقى فى الخدمة وأخى فى الحكومة ولماذا لم تخبرنى عن ابن أخى هذا من أول الامر فتكون قد حقنت ماء وجهى وأنقذتنى من كل هذه الاهانة وذلك التحقير

(عيسى بن هشام) - ماغاب عنى ان أذكّرك به فانه لم يكن له أقل نفع يدفع عنا ماتقلّبنا فيه من المصائب وانما نفعه يكون فى آخر الدرجات ولا عمل نرجوه منه فى مساعدتنا الا بعد صدور حكم الاستئناف والسعى فى التماس العفو من ولىّ الامر

* * *

وآن أوانُ الجلسة فى الاستئناف . فسرنا فى طلب العدل والانصاف . وكل واحد منا مشغول بحاجته . لاهٍ بنازلته . فالباشا يفكر فى مصيبته . ويتألم من بليته . والمحامى يدبر فى أمره . ويتطلع لأَجره . وأنا أسأل الله لنا النجاة . من مكايد الحياة . ولما وصلنا الى حى « الاسماعيلية » ورأى الباشا دُورها ومبانيها . وشاهد قصورها ومغانيها . واستطاب رياضها وحدائقها . واستنشق رياحينها وشقائقها . استوقفنا سائلاً مبهوتا . واستنطقنا بعدان كنا سكوتا . فقال ألا تخبرانى عن موضع هذه الجنة الزاهرة . من مدينة القاهرة .

فقلت له هذه « الاسماعيلية » اختطها اسماعيل . فيما اختطهُ لزينة وادى النيل . يسكنها اليوم جماعة من العظماء . ذوى الغنى والإثراء . وقد كانت فى أيامكم خرابا قفرا . لا تحمل بيتا ولا ترفع قصرا . ولا ترى فيها من النبات غير الطلح والضال . ولا من الازهار غير شوك القتاد أو شوك السيّال . ولا من الطير غير البوم والغربان . أو الرخم والعِقبان . ولا تجد فيها من الانس الا لصّا سالبا . أومغتالا ناهبا . أوفاتكا متأهبا . أوكامنا مترقبا

(الباشا) ـ لله در المصريين لقد ابتسم لهم الدهر . فأبدلهم من الشوك الزهر . وأسكنهم هذه القصور العالية . بعد تلك الاطلال البالية

(المحامى) ـ أيها الامير لا تغبط المصرىّ على نعمته . وتعالَ فابكِ معنا على نقمته . فليس له فى هذه الجنة من دار . يقر له فيها من قرار . وكل ماتراه من هذا الجانب . فهو ملك للاجانب

(الباشا) ـ لله أبوك كيف يختص الاجنبى دون الوطنى بهذه الجنان الناضرة . ويستأثر دونه بهذه المساكن الفاخرة . ولعلك تلغز فى قولك وتحاجى . وتعمّى فى تعبيرك وتداجى

(المحامى) ـ لا تحجية ولا تعمية . بل هكذا قدّر المصرىّ لنفسه . وتبدّل سعده بنحسه . واقتنع من دهره بالدون وبالطفيف . ورضى

بالقسم الخسيس الضعيف . فبات محروماً تحت ظل اهماله وخموله . وغدا بائساً فى سباته وذهوله . وما زال الاجنبي يسعى ويكد . ويعمل ويجد . وينال ثم يطمع . ويسلب ثم يجمع . والمصرىُّ يبذر بجانبه ويسرف . ويبدد ويتلف . ويتحسر ثم يلهو . ويعجز ثم يزهو . ويفتقر . ثم يفتخر . وسادتنا وكبراؤنا . وولاتنا وأمراؤنا . يعاونون الاجانب بسلطتهم فينا وسطوتهم . ويساعدونهم علينا ببأسهم وقوتهم . ويصطفونهم أنصاراً وأعوانا . ليزيدوا بهم المصريين ذلاً وهوانا . حتى وقعوهم أيضاً بأسرهم . فى قبضة أسرهم . فتساوى السيد بالمسُود . وتشابه الحاسد بالمحسود . وتعادل الرفيع والمنيع . بالحقير والوضيع . واشتركنا كلنا على السواء . فى منازل الشدة والبلاء . وأصبح نصيب القوىّ المكين . مثل نصيب الضعيف المستكين . وكذلك تكون عاقبة من يلقى للاجنبي بيديه . ومن أعان ظالماً سُلّط عليه :

وَمَن يجعل الضِرغامَ بازاً لصيدهِ ... تصيّدَهُ الضرغامُ فيما تصيّدا

قال عيسى بن هشام — وما كاد ينتهى رفيقاى من خطابهما . ويفرغان من سؤالهما وجوابهما . حتى مر بنا راكب درّاجة تنساب به كالصلال . فى بطون الرمال . ويتمايل بها تمايل النشوان . مالت

به نشوة الخمر . ويثنى اثناء الاغصان . هزها نسيم الفجر . فامتلأ الباشا . تعجباً واندهاشا . وسألنا الشرح والبيان . عن أمر هذا « البهلوان » . فقلت هذه عجلة حادثة يختارها بعض الناس . على المركبات والافراس . ومما يرغبهم فيها انها لا تأكل ولا تشرب . ولا تهزل ولا تتعب . وهـذا الراكب رجل من أهل القضاء . يركبها لرياضة الاعضاء . فأتبعه الباشا نظره فوجده قد سقط فجأة من فوق دراجته فانفرط عقـد الهيئة على سطح الارض الى ثلاثة أقسام : الراكب والعجلة والطربوش . ثم رأيناه تماثل للقيام فـلمّ شعثه وحاول أن يعلو الدراجة ثانية فلم يقدر عليها فسحبها بيده يجرها ويماشيها . وأخذ الباشا يخاطبنى فيه وفيها :

(الباشا) ـ ياحبذا لو عدنا من حيث أتينا . وكنا مطلقين لا لنا ولا علينا . وكيف يكون شأن القاضى أو الحاكم اذا كان هذا منظره وذاك مركبه أمام أعين العامة . وهل حُـكم الناس يوماً بغير أبهة الحجاب وعظمة المناظر ونخامة المواكب وقد كان الحاكم أو القاضى لا يركب فى عصرنا الا فى موكب تحف به الحشم والاعوان . وتتقدمه الجنود والفرسان . فترتجف منه القلوب رعبا . وتخرّ له الاعناق رهبا وقلّ من يجترئ من الناس على ارتكاب مايوقفه أمامه يوماً موقف

التهمة والارتياب

(عيسى بن هشام) ـ ذاك عصر مضى . وحكم انقضى . ولقد تفنن أهل العصور الماضية في وصف ماتذكره من منظر الابهة والجلال وهيئة العزة والوقار حتى أدخلها الشعراء فى مخالصهم البديعة كقول أبي الطيب فى ممدوحه مثلاً :

جمحَ الزمانُ فما لذيذٌ خالصٌ ... مما يشوب ولا سرورٌ كاملُ
حتى أبو الفضل ابنُ عبدالله رُؤْ ... يتهُ المُنى وهى المقامُ الهائلُ

(المحامى) ـ قد آن أن نفرغ من هذا الحديث فقد اقتربنا من المحكمة

(عيسى بن هشام) ـ ولعلنا نجدها باذن الله فى مكانها فقد تعودت التنقل من مكان الى مكان حتى اشبهت خيام العرب :

يوماً بحزْوَى ويوماً بالعقيق وبالـ ... ـعُذَيب يوماً ويوماً بالخُلَيصاءِ

ثم اقتربنا فوجدناها وأقمنا فى ساحتها ننتظر دورنا بين أرباب القضايا حتى نودى علينا فتقدمنا للجلسة أمام ثلاثة من القضاة فأخذ الاجنبيُّ منهم يقرأ « ملخص القضية » بلهجة أعجمية وحروف لم تستوف مخارجها فقال : « ان هذا الرجل متهم بالتعدى على فلان العسكرىّ بالضرب فى أثناء تأدية وظيفته فى يوم كذا من شهر كذا والمتهم أنكر وشهد المجنىّ عليه ودل الكشف الطبيّ على وجود

علامات فيه للضرب والمحكمة الابتدائية حكمت عليه بالحبس سنة ونصفاً بالتطبيق لمادتى ١٢٤ و١٢٦ عقوبات فاستأنف المحكوم عليه »

ولما سألت المحامى عن هذا التلخيص الغريب قال لى هكذا تجرى العادة هنا فيأخذ مثل هذا القاضى الاجنبى عبارة الديباجة المذكورة فى الحكم الابتدائي فيجعلها تلخيصاً للقضية ثم يكتبها بعربيتها بحروف أجنبية ليقرأها أمام الجلسة على نحو ما رأيت

ثم التفت رئيس الجلسة إلى الباشا وسأله عن اسمه وسنه وصناعته ومحل اقامته وأشار الى النيابة بالكلام فشرع النائب فى شرح القضية على ما يوافق هواه . ولم نسمع من الرئيس مقاطعة له فى كلامه كما يكون فى المحاكم الابتدائية (والسر فى ذلك ان بعض القضاة الذين لم يكونوا اطلعوا على أوراق القضية فى الاستئناف هم فى حاجة الى العلم بها من أقوال النائب فيتركونه وشأنه فى التطويل والاسهاب) ثم أذن الرئيس بالكلام للمحامى مع الإيجاز فابتدأ المحامي يسرد أقواله فى أوجه الدفاع عن المتهم وكلما وصل الى النقطة المهمة فى دفاعه قال له الرئيس : « الموضوع » : « طلباتك » . ولما تكرر منه وقوع ذلك رأيت أحد القضاة ينبه الرئيس الى ان كلام

القضية عند عرضه على زملائه فى المداولة فاذا عرضه عليهم لم يضع الوقت بينهم سدى فى البحث والمناقشة . ولكن لما كان القاضي الجنائي له الاستقلال المطلق فى الحكم بما يرتاح اليه ضميره وتطمئن به نفسه كان من الواجب عليه ان يسلك غير هذا الطريق ويفحص أدلة الثبوت وأدلة البراءة بنفسه فيعرضها على ضميره وهو خال من كل اعتقاد خاص للبراءة أو للتهمة حتى اذا استقامت لديه الادلة حكم بما يغلب عليه منها لا أنه يجرى فى طريق التسليم لرأى الغير ولا أن يكون الحكم مبتوتا فى القضية بأحد هذه الاحرف الثلاثة التى عنَّت للقاضى الملخص وهو يمر عليها فى انفراده ببيته مرّ السحاب

قال عيسى بن هشام ــ وبينا نحن فى هذا الكلام اذ عادت الجلسة الى انعقادها فدخلنا لسماع الحكم فنطق الرئيس ببراءة الباشا لعدم ثبوت التهمة عليه لانه قد حالت دونه ودون دعوة القانون قوة قاهرة فخرجنا مسرورين بهذه النعمة وخرج الباشا وهو يقول :

(الباشا) ـ لا أنكر اليوم ان العدل موجود ولكنه بطئ . لا يتحمل أعباء بطئهِ البرئ . وكان الأولى فى هذه المحاكمات ان تكون النهاية فى البداية فلا يلحق من كان مثلى هذا الهوان والصغار . ويقع به ما وقع من الحبس والعار . بعد أن يقف موقف التهمة

المحامى فى عين « الموضوع » (وللرئيس العذر لانه لم يطلع على تفصيل القضية ولم ينصت لاقوال النيابة) ثم نطق الرئيس بعد ذلك بقوله : « سمعت القضية والحكم بعد المداولة » فانتقلت الجلسة الى حجرة المداولة وخرجنا ننتظر وسألت المحامى عن المسافة التى تنقضى فى المداولة فأجابنى :

(المحامى) - لا تزيد مدة المداولة فى الغالب عن ساعة واحدة

(عيسى بن هشام) - وما هو المتوسط من عدد القضايا فى الجلسة

(المحامى) - متوسطها عشر قضايا

(عيسى بن هشام) - وهل تكفي هذه المدة للاطلاع على ما تحتويه القضايا الجنائية من كثرة الاوراق

(المحامي) - نعم تكفى عندهم لكل القضايا ولو كان الاطلاع على القضية الواحدة التى يحكم فيها بالاعدام أو بالاشغال الشاقة المؤبدة يستغرق ساعتين أو ثلاثاً . وطالما اطلعنا على القضايا التى تعود من عند القاضى « الملخص » الى قلم الكتاب لاطلاع المحامين فنجد عليها رمزاً بأحد هذه الاحرف: «ب» «ع» « ت » . فالباء إشارة الى البراءة والعين اشارة الى العقوبة والتاء إشارة الى تأييد الحكم الابتدائى . وانما يضع القاضى هذه الرموز حتى لا ينسي رأيه فى

والإجرام . ويحل به ما يحل من التعذيب والإيلام

(المحامي) - اني أهنئك بهذه البراءة وأسأل لك دوام العافية من مصائب الاتهام ولا زلت تخرج من كل قضية خروج السهم من قوسه والسيف من غمده . وقد مضى منى الدفاع وبقى عليك الدفع

قال عيسى بن هشام — وما زال المحامى عاكفاً علينا يطالبنا بالاجر . والباشا يعده لآخر الشهر . حتى يأتيه بعض خدمه وأتباعه . بمال من عقاره وضياعه . والمحامى يأبى التسويف والامهال . والآ الدفع فى الحال :

(المحامى للباشا) — أتظن انهذه الوعود . تقوم لدينا مقام النقود . فى بلد كثر فيه الانفاق وزادت الضرورات . وقلّ فيه الربح كما قلّت المروءات . وصار الدرهم أعزّ عند الاب من بنيه . وعند الابن من أبيه . ولقد تعبت فى القضية تعبين باللسان وبالجنان . ولا استريح منهما الا بنقد الاصفر الرنان . وانك لا تصرفنى — وان كنتَ محمود الخلق — بالوعد . ولكنك تصرفنى — وأنا أحمد — بالنقد . وانى لا أريد أن أسكن فى بيت المتنبى :

أنا الغنىّ وأموالى المواعيدُ

فلا تجعل الخلاص من قضية بقضية . والفكاك من بلية ببلية .

فذلك ما لا يأتيهِ العقلاء . ولا يرتضيهِ الامراء

قال عيسى بن هشام - ولما رأيت الباشا لا يقدر على التلفظ . من شدة الحنق والتغيّظ . تداخلت بينهما تداخل الاريب . وتوسطت توسط اللبيب . فنلت بلطف الالتماس والرجاء . رضاء المحامى بالمهلة والإرجاء . الى أن ينتقل الباشا من العوز والعسر . الى الغنى واليسر . وقلت لهُ ما يقال فى باب المروءة والهمة . من وجوب الحنو على من يقع فى مصيبة أو ملمة . وأنّ من تذكر الدهر وغِيَرَهُ . والزمان وعِبَرَهُ . لانتْ عريكته . وطاوعتْ شكيمته . وليس بين صعود المرء ونزوله . وإشراق سعده وأفوله . وبين غناه وفقره . وصفوه وكدره . الا مسافة انقضاض القضاء . من رب السماء . فنظر اليّ الباشا نظرة الاحتقار والازدراء . وخاطبنى بالانفة والكبرياء :

(الباشا) - لَبئس الخدين أنت والقرين . كيف تسمُنى بسمة الفقراء . وتستعطف عليّ قلوب الضعفاء . وأنا الأمير السرِىّ . والغنىّ الثرىّ . وأين ما أدخرتهُ فى عمرى . واكتنزته فى عصرى . من مال وعقار . وفضة ونضار . وقصور وضياع . وزخرف ومتاع . ولقد كان يُضرب بغنائى المثل . فان كنتَ جاهلاً بى فسَلْ . اذهبْ فأتنى بخبر ما خلّفت وأبقيت . وأثرِ ما جمعت واقتنيت . وكيف

يخفى عليك وعلى المحامي مالي من الاموال والعقار. وما قضيت فيه العمر من الجمع والادخار. فاني يشهد الله ما تركت حيلة. ولا أغفلت وسيلة. في الحصول على الاثراء والغنى. حتى جمعت منه كثيراً مما تفرق على الورى. فجعلته عدة لشد أزرى. وأمانا لي من مصائب دهرى. وتركته ذخيرة لابنائي وحفدتي. وميراثاً لأعقابي وذريتي. ليكونوا من ذل الحاجة في جُنة. ومن نعيم العيش في جَنة. وتركتهم على ذلك مطمئن القلب مستريح الفؤاد. رفيع الذكر رفيع العماد

(المحامي) — نعم انا لنعلم يامعشر الامراء والحكام انكم قضيتم الاعمار في جمع الحطام واتخذتم الحكم والسلطان تجارة من التجارات وبضاعة من البضاعات تربحون منها الغنى والثروة ولم تكونوا تعلمون للحكم من مزية سوى اكتناز الاموال واستلاب الحقوق وابتزاز الدراهم من دماء الارامل والايامى وانتزاع الاقوات من أفواه الاطفال واليتامى وكنتم سواء عليكم حزتم المال من حله أو غير حله لم تبالوا بالضعيف المسكين ولم ترثوا للعاجز المستكين بل ظلمتم البرىء وبرأتم الظالم فجمعتم لديكم من أثر ذلك ما فرقه الله على عباده من رزق وما قسمه لهم من قوت ورضيتم بالوزر وطوقتم اعناقكم بالإصر ثم حرمتم بعد ذلك على أنفسكم التمتع بما جمعتموه

وحرمتموها من كل ماحزتموه ولم تكونوا من الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ولم تؤدوا مافرضه الله عليكم فيها من الحقوق ولم تطهروها بزكاة ولم تزكوها بإحسان وأطربكم منهار نين الدرهم فوق الدرهم وصمت الدينار مع الدينار وأبدعتم ماشئتم فى وسائل وطرائق يأباها الله لعباده ويمقتها ويستبشعها الانسان ويستفظعها السلب ماسلبتموه وكنز ما كنزتموه بالإثم والعدوان ومعصية الرسول واجترأتم على الله فى أوامره ونواهيه وكلفتم العلماء بتأويلها على اهوائكم فأوّلوها لكم لانحصار الارزاق فى ايديكم واحتياجهم الى ماتقتاتون به من فضلات عيشكم فالوزر عليكم وعليهم ولكنه عليكم أعظم وفوقكم أثقل . حتى اذا انقضى العمر وحلّ الأجل تركتم ماخلفتموه لغلمة من أولادكم وصبيةٍ من جواريكم نشأوا بينكم على الحرمان ولم تثقفوهم بالتعليم ولم تتركوهم للزمن يؤدبهم وللأيام والليالى تهذبهم فكنتم فى أعينهم كالرصد الذى يكون على باب الكنز — كما يقال فى الاقاصيص — يحتالون لنقله بقتله فاذا استراحوا منكم بالموت أو القتل مزقوا أموالكم انتقاماً منها ومنكم وفرقوا شملها فى أدنى من لمحة جهلاً منهم بوجوه التصرف وأبواب التمتع فما هو الا أن يتسابق الدود والورثة فى احشائكم المدفونة . وأحشائكم المخزونة . فيسبق

الورثة الدود . فى الصدور والورود . فتذهب البدرة وراء البدرة والضيعة بعد الضيعة والدار عقب الدار حتى اذا لم يبق الا بيت السكن أتوا على مافيه من الاثاث بيعاً وما فى اعناق الجوارى من الجواهر والقلائد رهناً ولا يزالون يخلون من البيت حجرة إثر حجرة والدائنون يدخلون فيه خطوة إثر خطوة الى أن يندك بناؤه ويعفو أثره ويزول اسم بانيه الذى ارتكب ما ارتكب من الذنوب لتشييده ودوام بقائه وهو يشيع منهم باللعنتين فى الحالتين حالة الخلاص منه بالتشييع الى القبر وحالة أسفهم على اهماله اياهم من تثقيف العلم بما كان ينفعهم فى خشونة الفقر

هذه أيها الامراء عاقبة ماصارت اليه أموالكم ومقتنياتكم من بعدكم ويا ليت أولادكم واحفادكم خففوا عليكم من الإثم فى جمعها من دماء المصريين بإنفاقها بينهم وتبذيرها فيهم فيكون ذلك منهم كرد بعض الحق الى أهله ولكن البلاء كل البلاء انها ذهبت جميعها الى أيدى الاجانب والغرباء . وكأن الدهر سلط المماليك على المصريين ينهبون أموالهم ويسلبون اقواتهم ثم سلطكم الله عليهم لسلب ماجمعوه ثم سلط عليكم أعقابكم فسلموا مجامع ذلك للاجانب يتمتعون به على أعين المصريين والمصريون أولى بالقليل منه . وما دفع بأعقابكم الى

هذا اللين والتسليم الا ما اورثوه عنكم من الاحترام لشأن الاجنبي والاحتقار لجانب المصرى وأنكم لم تكتفوا بأن تكونوا أربابًا للمصريين حتى شاركتم معكم الاجنبي في تلك الربوبية فغلبكم عليها واشرككم مع المصريين فى العبودية وتشابهت الموالى بالعبيد . وقد آن ان تعلم ايها الامير بان جميع اقرانك واخوانك من ذوى الثروة واليسار فى ايامكم قد أصبحت بيوتهم خاوية على عروشها وأبصار أعقابهم شاخصة اليها فان أردت ان تبحث عن أموالك وضياعك اليوم فابحث عنها تحت ثِقال تلك الرحى وقل معى ما يقوله الشاعر الحكيم :

يقول الفتى ثمّرتُ مالى وإنما لوارثهِ ماثمّرَ المالَ كاسِبُهْ
يحاسِبُ فيهِ نفسهُ في حياتهِ ويتركُهُ نهبًا لمن لا يحاسِبُهْ

فياعبث المدّخِر الجامع . ويا غبنَ المكتنز الطامع . ما كان أغناكم عن الجمع والادخار . وعن الحرمان فى الدنيا والخلود فى النار

(الباشا) ـ أراك قد تجاوزت أيها المرشد الواعظ حدّك فى اللوم والتعنيف وخرجت عن طورك فى العذل والتعزير وكان بودى أن أعطيك اجرك مضاعفًا ولا أشاهد منك هذه الجرأة علينا بسوء التقريع والتوبيخ . وربما قلتَ حقًّا فى بعض ماتقول والرجاء فى غفران

الله عظيمٌ وفى رحمته متسعٌ ولعل ما تخلل اعمالنا فى ايامنا من الحسنات يشفع لنا فى ما اقترفناهُ من السيئات . ولكن كيف التدبير الآن فى اكتساب المعيشة والاحتيال لالتماس الرزق بعد أن ضاعت الاموال وذهبت من أيدينا الاحكام على نحو ما تروى وتحكى . وما أرى لضيقى من مفرج الا أن أورد نفسى حتفها وأعيد لها حمامها فما أروَحَ ما كنت فيهِ من ظلام الرمس . وما أقبح ضياء هذه الشمس

(عيسى بن هشام) — ليس لمثل حالتكم غير الاسف منا والتوجع لكم فقد تمكن الاعتقاد فى رؤوس الحكام ان ما يقع بالاتفاق لهم بين حين وآخر من ولاية الاحكام فهو قياس مطّرد وصراط مستقيم لا ملجأ لكم سواهُ فى وجوه المساعى وممارسة مطالب الحياة . وقامت الولاية عندكم مقام بقية الآلات والصناعات التى يجتنى اهلها منها ثمر الارتزاق والتكسب فاذا خلَتْ ايديكم منها واعتزلتم الاحكام تقطعت بكم الاسباب وضاقت بكم السبل فى وجوه المعايش كما تصاب يد الصانع بالشلل فيتعطل عن العمل ويصبح كلاًّ على كاهل الجميع يرجو الموت كما رجوتَ ويتمنى راحة العدم كما تمنيتَ . وكأنكم أيها الحكام صنف من فوق أصناف الخلقة لكم نصيب من العيش دون سائر الخلق فلا تكونون الا فوق ذهب العرش أو فوق خشب النعش

وقد قال مسكين من رؤساء صناعتكم هذه وهو فى ضيق الحبس وضيق النفس :

ونحن أناسٌ لا توسّطَ عندنا لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ

ومعلوم لك ما فى هذه الصناعة صناعة الولاية والحكم من قلة ما يرفعهُ الصدر و كثرة ما يضمهُ القبر . وكان الأَولى بكم ان تكونوا كالناس فى معايشهم لكل انسان آلة بينة من صناعة أو حرفة أو مهنة يحسن بها التعيش والارتزاق حتى اذا أنتم نزلتم عن تلك العروش دخلتم فى بقية الاحياء من افراد الجمعية تنفعون و تنتفعون

(الباشا) — تالله ان ما قاسيته من الآلام أمام البوليس والنيابة والمحكمتين واللجنة كان أقلّ هماً وأدنى شجناً من مرارة هذا النصح والوعظ . وما هو الرأى عندكما وقد فات وقت التحصيل والطلب ولم يبقَ وقت للصناعة والعمل . والموعظة صالحة نافعة ولكنها لمن يجئ لا لمن يمضى

قال عيسى بن هشام — فأحزنتنى حالة الرجل وأشفقت عليه فأخذت أتدبر له واتفكر فى طريقة يتعيش بها وكلما خطر لى فى ذلك خاطر خاب رجائى فيه حتى كدت أيأس من الحيلة والباشا ينظر الى وأنا فى تفكرى تارة ويطرق للتفكير فى نفسه تارةً أخرى . ثم رأيتهُ قد انتفض من

مكانه واخذ بيدى يقول لى :

(الباشا) ـ قد وجدت والحمد لله باباً لسدّ العوز وكفاف العيش

(عيسى بن هشام) ـ ماذا وجدت

(الباشا) ـ كان من عادة الحكام امثالنا فى الأزمان السالفة أن يأتوا فيما يأتونه من أعمال الخير التى تقربهم من الله وتعتق رقابهم من النار بعمل صالح اتفقوا عليه كافةً وهو اقامة بناء لجامع أو كتّاب أو «سبيل» وكانوا يخصصون له أرضاً أو ضيعة وقفا عليه للانفاق من ريعها على طول الزمان وقد سلكت مسلكهم واتبعت سنتهم وخلفت لذلك وقفاً عظيماً لا تناله أيدى الاعقاب بالإتلاف والتبذير فهلم معى نبحث على ماشيدتهُ ووقفتهُ

*
* *

قال عيسى بن هشام ـ وظللت أنا والباشا نواصل الطواف بالطواف. للوقوف على تلك الاوقاف. ونسائل العابر وابن السبيل. عن المسجد « والسبيل ». ولا سؤال المجدب عن الروض. والظمآن عن الحوض. فلم نجد من يرشد. الى ماننشد. وأخذ الباشا يتذكر الطرق وأماكنها. والازقة ومساكنها. ويقول كان هنا وكان هنا. وجلّ مايقضي به إلهنا. ومازال يقاصر فى خطواته. ويطاول من آهاته. ويبكى لرسوم

الاطلال والديار . بكاء صاحب عزّة أو صاحب نوّار

فاسألنها واجعل بكاكَ جوابًا   تجد الدمعَ سائلاً ومُجيبا

حتى وصلنا بعد طول التجوال والتجواب . وترداد المجيء والذهاب . الى منعطفٍ مضيق . في منتهى الطريق . فوقف الباشا هناك قُبالة دُورٍ مهدّمة . وجدرانٍ محطّمة . ومسجدٍ في فجوة منه حانوتُ خمّار . وفي زاويةٍ منه دكان عطار . وبجانبهما حوانيت متباينة الاوصاف . مختلفة الاصناف . فطفق الباشا يصعّد نظره فيها ويصوّبه . ويخطّئ حدسه تارة ويصوّبه . فهداهُ طول النظر والتدقيق . وشدة الامعان والتحقيق . أن رأى شيخًا فانيًا متربعًا في دكانه . متحيزًا بمكانه . عليهِ علامات الانحلال والسقوط . وشارات الخذلان والقنوط . وسِيمَا الرضاء بالمقسوم . والتسليم للقضاء المحتوم . له جبهة كأنها من ورق البُردِيّ العتيق . تتلو فيها مادوّنه الدهر من آيات الشدة والضيق . فخرج الباشا في الحال من حال المتحير المتردد . الى حال الواثق المتأكد . فنادى صاحبَ الدكان عن بُعد . نداء السيد للعبد . فانتفض الرجل انتفاضًا عجيبا . وقصده مُلبيًا ومجيبا . فما شككت من هيبة النداء وأدب التلبية . الآن ملكا ينادي احد الحاشية . ووقف الرجل أمامنا وقفة الممتثل الخاضع . والمطيع الخاشع .

فقال له الباشا بعد ان حدّد فيه نظره . واستجمع فكره :

(الباشا) ـ ألستَ انت احمد أغا الركبدار المعدود من أهل حاشيتي. ألاَ تعرفني من أنا

(صاحب الحانوت) ـ لولا أن الموت حجاب كثيف وحجاز منيع بين ظهر الارض وبطنها لقلت انك سيدى واميرى ويشهد الله انى كلما أمعنت فى وجهك وسمعت لصوتك كاد يطير عقلى ويندهش لبى لاستحكام الشبه بينك وبين سيدى المرحوم

(الباشا) ـ انى انا سيدك وهذه هى العلامة التى تعلمها فى جسمى من أثر اللعب بالجريد على مشهد منك فى يوم من ايام السبق والرهان

(وكشف الباشا عن ساقه فأراه العلامة فوقع الرجل منكبا على الارض من شدة الدهشة يقبّل قدم الباشا ويغسلها بمنحدر الدموع ويقول في بكائه وشهيقه) :

(صاحب الحانوت) ـ كيف بالحياة بعد الممات . لحقّ انت احدى المعجزات . وليس ما أراهُ بغريب فقد شاهدت فى هذا العمر الموجز مالا تحيط بوصفه اقلام ولا تتسع له بطون الدفاتر من عجائب الانتقال وغرائب الانقلاب فلا يبعد بعد ذلك ان تشرق الشمس من مغربها وتُخرج الارضُ أمواتها من مقابرها

قال عيسى بن هشام - فقلت للرجل لا تكثر من الدهشة والحيرة ولا تغرب فى الاستغراب والتعجب

على أنها الأيامُ قد صِرنَ كلُّها عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ

واعلم أن القدرة لا تعجز عن شئ فى الوجود ولا تحيط بها العقول. ثم قصصت عليه قصة الباشا منذ البداية فصاح الرجل يبكى ويتضرع ويقول ليت أمى لم تلدنى وليت القدرة التى بعثت الامير من بعد موته نشرت معهُ زمنه وأعادت عصره وإلا فكيف لهُ بالعيش فى هذا الزمن. وما أولاهُ بالعودة الى ادراج الكفن.

ثم التفت إلى الباشا وشرع يقص عليه ما مرّ بهِ من الحوادث والكوارث وما جرى لبيت الباشا ولأهل طبقته من النوازل والخطوب:

(صاحب الحانوت) - ولم يبق لك أيها المولى من أثر يُذكر فى ثروتك ومتاعك. وأموالك وضياعك. وقد عشتُ دهراً وأنا متمتع بريع ما وَقفتَهُ أيها الأمير على حاشيتك وأتباعك وعلى هذا المسجد والسبيل والكتّاب لتخليد ذكرك وإحياء اسمك فما لبث الوقف أن تهدّم وتخرب بطول الترك والاهمال فوقعنا كلنا فى الفاقة والاحتياج وانقلب الكتّاب مخزناً والسبيل خمارة والمسجد مصبغة

كما تشاهد وترى وأصبحت أنا بيطاراً بعد أن كنت « ركبداراً » وأخذت هذه الحانوت من الوقف لممارسة صناعتي فيها والتعيش منها وسبحان مقلب الاحوال ومبدل الاشكال

(الباشا) — ألم يبق من ذريتي أحد يباشر هذا الوقف بنظره

(البيطار) — آخر العهد عندي كان بواحد منهم ذهبت اليه لأَجل هذه الحانوت وأعلمته بمكاني من أهل الحاشية فانتهرني وطردني وأبعدني وزجرني ولكن الحاجة دفعتني إلى الالحاح فترددت عليهِ مراراً فتخلص من ثقل إلحاحي باحالتي على رجل افرنجي عندهُ يدبر لهُ مابقي لديهِ من ثروة نضبت عينُها ونزحت بئرها فأحالني الافرنجي على صاحب الخمارة لأنهُ أصبح صاحب الأمر في أرض الوقف بوضع اليد عليها وليس يجسر أحد أن يعمل فيها شيئاً بغير ارادته خوفاً من الخصومة في المحاكم فقصدت الخمار واتفقت معهُ على أجرة معينة وأقمت في هذه الحانوت أصرع الدهر ويصرعني وأطلب القوت ويعوزني وأتعجل الأجل ويمهلني وتعالى الله المتفرد بعزته المبدع في حكمته

(الباشا) — وأين هذا الولد العاقّ المخالف لإرادتي وهو يعلم ان شرط الواقف كنص الشارع

(البيطار) ـ هو مقيم الآن فى « الاوتيل »

(الباشا) ـ وما هو الاوتيل

(البيطار) ـ « اللوكاندة »

(الباشا) ـ وماهي اللوكاندة

(عيسى بن هشام) ـ « الاوتيل » هو بيت معروف يعدّونه لنزول من لا بيت لهُ من الاجانب والغرباء على أجر معيّن وهو فى المعنى كالخان الذى تعرفونهُ فى زمانكم

(الباشا) ـ هل وصل التدنّى بهذا الخائن إلى سُكنى الخان . وسبحان مصرّف الاحوال ومغيّر الازمان . وكيف يطيب للمسكين عيش على هذه الحال . بعد عز النعمة ووفرة المال . أَفكان رجوعى الى الحياة على مالا أرغبهُ ولا أرضاه . تعذيباً لي على ما فرّطت فى جنب الله . أولم يكن عنده سبحانهُ فى الآخرة من عذاب النار . ما يغنى عن التعذيب بالعار . فى هذه الدار . ربِّ ان الجحيم لأهون عليّ فى العذاب والنكال . مما ألاقيه من الرزية فى المال والعيال :

فليت وليداً مات ساعةَ وضعهِ ولم يرتضع من أُمّهِ النفَساءِ

(عيسى بن هشام) ـ ليست السكنى فى (الاوتيل) اليوم عن ذل وفقر . بل هى عن عز ويسر . فان النفقة فيه بضعة أيام تكفى لنفقة

شهر . على أكبر قصر . بجواريهِ وخدمه . وأتباعه وحشمه . وقد دعا أولادكم الى ذلك ولوعهم باحكام التقليد للاجانب وإتقان الاقتداء بهم والسعيدُ المنعّم من أولاد الأمراء اليوم من يبيع عقارهُ ويرهن ضياعهُ لتتيسر لهُ الاقامة فى هذا الخان ومنهم من يتعذر عليهِ مفارقة أهله فيؤتى لهُ بالطعام من « الاوتيل » إلى البيت وعنده الطباخ فى أسفلهِ والجوارى الطاهيات في أعلاه

(الباشا للبيطار) — أرجوك أن تصف لصاحبي مكان « الاوتيل » الذى يسكنهُ ذلك الغلام فان بى حاجة الى لقائهِ

(البيطار) — كيف تخاطبنى أيها الأمير بلفظ الرجاء وأنا أنتظر فى خدمتك ان تأمرنى بما تشاء وهل تظن أنى أفارق ركابك أو أزايل معيتك مهما تقلبت الاحوال وتبدلت الأزمان فهلم منك الامر والاشارة وعليّ السمع والطاعة

*
* *

قال عيسى بن هشام — ودعاني الباشا للسير معه . وهو يكفكف أدمعه . وتبعنا البيطارُ من خلفنا بخطاهُ الثقيلة . وعصاهُ الصقيلة . فقد صقلها طول التوكأ والاستعمال . وتعزّى بها في السَير والانتقال . عن ظهور الخيل ومتون البغال . إلى أن وقفنا عند أحد القصور

الكبيرة . من الفنادق الشهيرة . فهال الباشا مارآهُ من ضخامة البناء . ونخامة المنظر والرُواء . وما لقيهُ من ادب الخدم والاعوان . ورشاقة الوُصفاء والغلمان . فتخيّل اننا اخطأنا الابواب والمداخل . فدخلنا بيتاً من بيوت الوكلاء أو القناصل . وتقدمت للسؤال والاستخبار . وقد خلّفنا البيطار فى الانتظار . فدلّنا احد الخدم عن رقم المكان الذى يسكنهُ الامير . بعد طول التردد والتفكير . فما وصلناهُ حتى دفع الباشا بيديهِ دَفّتى الباب . لم يلتفت لطلب اذن ولا لرجع جواب . فوجدنا أمامنا جماعة من أولاد الامراء . وأعقاب الكبراء . مختلفين فى الجلوس . حاسرين عن الرؤوس . ففريق منهم عاكفون على لعب القمار . وفريق ينظرون فى صور خيل المضمار . ومنهم جماعة قد استداروا بامرأة تَصف لا عجوز شوهاء . ولا فتاة حسناء . تجتلب الحسن بافراط التأنق والتفنن . فى وجوه التصنع والتزين . فيكاد يضيء وجهها بسنا العقود والقلائد . ويتلألأ جبينها بلألاء الجواهر والفرائد . وفى وسط المكان مائدة عليها صنوف الراح . فى الاباريق والاقداح . وبجانبها منضَدَة . عليها آنية منُضَدَة . وفوقها الدواة والقرطاس . ويراعة مرصعة بالالماس . وكتب أعجمية موشاة بالذهب . لاأدرى ان كانت فى اللهو أو فى الادب . وعلى الارض أوراق أحكام

منشورة . وجرائد تحت الاقدام منثورة . لم يُفضض عنها ظرف . ولم يُقرأ منها حرف . وسمعناهم يتراطنون جميعاً بلغات أجنبية . دون اللغة التركية أو العربية . الا ما كان من أسماء الخيول العربية . بعد ان يبدلوا القاف . بالكاف . وينطقوا بالحاء . كالهاء . ولما رأونا ظهر منهم العبوس والقطوب . وبدا عليهم انقباض الصدور والقلوب . وانبرى من جانب المرأة شاب . فأسرع نحو الباب . فخاطبنا بعبارة فرنسوية . ولثغة باريسية :

(الشاب) ـ كيف ساغ لكما الدخول بغير إذن

(عيسى بن هشام) ـ دعا الى ذلك شوقُ الوالد الى رؤية ذريته

(الشاب) ـ لست افهم لك كلاماً فصرّح لى وبيِّنْ

(عيسى بن هشام) ـ فلان يسأل عن فلان

(الشاب) ـ انى انا فلان ولكن من هو فلان الذى يسأل عنى

(عيسى بن هشام) ـ هو جدّك الاكبر أحياه الله بعد مماته وبعثه من رقاده وكان من أمره انى كنت أزور المقابر ذات يوم من الايام . . . . .

(الشاب) مقاطعاً مستهزئاً ـ اذهبْ عنى فلست أسمع لهذا الكذب والخرَف وليس لى اليوم من جدّ ولا والد ولا أنا ممن يصدق بحديث

البعث فى الآخرة فكيف برجوع الموتى الى الدنيا . تعالَوْا أيها الاخوان فاعجبوا معى واضحكوا لما اسمعهُ من هذا الرجل الذى يخاطبنى وانظروا الى هذا « الباشبوزق » الغليظ الذى بجانبه فهو يدّعى انهُ من آبائى وأجدادى بعثهُ الله ليطالبنى فيما أظن بما ورثتهُ من الاموال وينازعنى فى نظارة الاوقاف . فهل سمعتم بأعجب مما اصبحنا فيهِ اليوم لم يكتفِ الدهرُ بتكدير عيشنا وتعكير حياتنا بمطالبة ارباب الديون حتى بعث الاموات من قبورهم ليطالبونا بمواريثهم واموالهم ألا ترونها ايها الخلاّن انها أبدع نكتة فى أواخر القرن

قال عيسى بن هشام — فاستغرق الجميع عندذلك ضحكاً واستلقَوْا قهقهة وكلما سألنى الباشا عن مكان حفيدهِ واستفهمَ منى عما يجرى معى من الكلام استمهلته لتمام الحديث حتى لا يقف على شيءٍ مما يقال ولا يحس بوقع تلك السهام والنبال . ولما انتهى الشبان من ضحكهم نادوا بالخادم ليأمروهُ بطردنا وإخراجنا . وحانت فى هذه الاثناء إلتفاتة من الحفيد بين دوراته وحركاته فلمح احد قرنائه واخوانه قد انزوى بتلك الخليلة . التى هى عندهم كالحليلة . يلاعبها وتلاعبه . ويغازلها وتداعبه . فانقضّ عليهما كالصقر الأجدل فاستعَرَ بينهم الجدال واشتد الخصام والتفّ حولهم الجمع وسمعت الحفيد يعتب والصاحب يعتذر

والمرأة تبكّت وتؤنّب وتقول لعاشقها: «ليس لك مثل هذه الجرأة في العتاب والملام ولا يأتي ماتأتيه من الحدة والتهور في الغيرة الاّ من كان قائما بحاجتي مجيباً لرغبتي وقد طلبت منك بالامس ان تشتري لي ذلك العقد الذي حضر لتاجر الحلي من أوربا في البريد الاخير فسوّفتَ وماطلتَ بعد أن أجبت ووعدت واعتذرت بالإعسار والضيق ثم بلغني اليوم انك اشتريت فرساً جواداً بمبلغ عظيم من المال فكيف تقصر في حاجتي مثل هـذا التقصير وتبغي مني الاقتصار عليـك والاختصاص بك دون بقية من يبذل ماله وروحه في سبيل مرضاتي من اصحابك واخوانك»

ثم سمعت الحفيد يحاورها والعرق يتساقط من جبينه والوجد يقطع انفاسه: «تالله مااشتريت شيئاولـكن بعت أشياء لأشتري لك العقد بثمنها ولا يغرنك مايقال لك عن ثروة هذا الصاحب الدنئ الخائن وعن قلة أموالي ورهن أطياني فانت تعلمين بمقدار الاموال التي ستأتيني من اكتساب القضايا المعلقة لي في المحاكم كما ينبئك به المحامي في كل حين»

وماسمع ذلك الصاحب سبّه بهذين النعتين حتى اضطرم واضطرب. وثارت به سَوْرة الغضب. فتقدم فلعنه وشتمه. ودفعه ولطمه.

فوعده الملعون الملطوم . بالمبارزة في يوم معلوم .

ثم علا هناك صياح أيضاً في مجلس القمار بين صديق وصديق . أحدهما في يسر والآخر في ضيق . وأخ يبغي الاقتراض من أخيه . ومفلسٍ يطالب مُيَسَّراً بدين لا يؤديه . وانكشف الجدال كذلك عن الضرب واللكم . وانتهى النزاع بالصفع واللطم

واشتبك خصام آخر في ركن المكان . بين أهل السبق والرهان . هذا يقول فرسي سابق . وفرسك لاحق . وذاك يقول «ركبداري» حاذق وابن حاذق . وجوادك قصير وجوادي شاهق . وانت الآن مقرٌّ معترف . بأن الوزن بينهما مختلف . واشتدت المنافسة والمنابزة . وجرى بينهم حديث للمبارزة . كل هذا والمرأة تنسحب من حلقة الى أخرى . تسحبُ الحية والأفعى . فتطفئ نار الجدال مرة على حسب بغيتها . وتشعلها طوراً لخبث نيتها

ورأيت الأجدر بنا أن نتركهم على هذه الحال فجذبت بضبع الباشا وخرجنا من ذلك المكان وأسرعت بهِ منحدراً الى الطريق فسألني عن تفصيل ما كان وجرى فترجمت لهُ شرح الحال والمآل فاحتدم غيظه واضطرم حنقه فلم يطفئه الا ما قلته له في آخر الحديث من عزم القوم على المبارزة فيما بينهم بالسلاح فقال وهو يتابع زفراته : لعل

القدرة تكشف عنى هذا المصاب . وتريحنى المبارزةُ من الابناء والاعقاب . فقلت فى نفسى ان ابناءكم لم يرثوا منكم اخلاقكم كما ورثوا عنكم أموالكم وليس عندهم من الشهامة مايدفعون بهِ عن الاعراض والاحساب . ولا من الشجاعة مايؤنسهم بالطعان وبالضراب . ولا يأبهون لكشف العار وأخذ الثار . والمبارزةُ عندهم كلمة تقال بالليل وتمحى بالنهار

وتذكر الباشا فى طريقهِ شدة حاجتهِ الى وفاء ماعليه من الاجر للمحامى فالتفت الى البيطار يسألهُ :

(الباشا) - هل بقى أحد ممن كانوا حولى من الخلطاء والأقران أهل النجدة والفتوة وأصحاب الهمة والمروّة

(البيطار) - لم يبقَ منهم إلا فلان وفلان وفلان

(الباشا) - ابدأ بالذهاب معنا الى بيت الأول منهم فسرنا الى حيث أشار والهموم تفرسنا . والغموم تخرسنا والاكدار لا تفارقنا . والاقدار لا توافقنا

*
* *

قال عيسى بن هشام - ومضينا نقصد أحد الثلاثة من قرناء الباشا ورفقائه . وبقية أخلائهِ وأصدقائه . فانتهى بنا طول المسير

الى بيت ذلك الأمير . وكأنهُ ميدان فى اتساعه . وحصن فى ارتفاعه . ووقف بنا البيطار . عند باب الدار . فسلّم على الخدم وحيّاهم . ثم سألهم عن سيدهم ومولاهم . فأجابوه بالتجهم والعبوس . انهُ فى قاعة الجلوس . فخطونا فى بحبوحة الميدان . فرأينا فى وسطهِ شجرة كثيفة الاغصان . حنىَ قوامها تقادمُ الازمان . كأنها الثكلى حلّت شعورها فى مأتم الاحزان . وفى ظلها فرس يجن ّ من النشاط والمراح . وبجانبهِ كبشُ ضأنٍ للنطاح . وحولهما ديَكة نُزالٍ وضراب . ظنابيبها مسنونة كالحراب :

فَحُمْرٌ وسود حالكَاتٌ كأنَّها ... سَوامُ بنى السّيدِ ازدهتهُ القوائمُ
يُزانُ لديها الطعنُ في حومة الوَغَى ... إذا زُيّنتْ للعاجزين الهزائمُ
وفيها إذا ما ضيّعَ النكسُ غيْرةً ... تُصان بها المستصحَباتُ الكرائمُ

ثم وصلنا الى قاعة مشيّدة البنيان . فسيحة الاركان . فى أحد جوانبها سلسبيل . يسيل ماؤه من أفواه التماثيل . والأرض مفروشة بالبُسُط الفارسية . وبجلود الضوارى الوحشية . والحيطانُ مستورة بأنواع السلاح . من خناجر وسيوف ورماح . وفوقها عدة صفوف . من الرفوف . تحمل الطرائف الكريمة . والأوانى الصينية القديمة . مع عيدانٍ للتدخين . من أغصان الياسمين . فخلعنا نعالنا . وتقدمنا

أمامنا . فوجدنا الامير ومن معهُ جلوساً متربعين . منصتين مستمعين . يضئ في وجوههم نور الشيب والوقار . وتزدهيهم هيئة العزة والاستكبار . فانقطع الحديث عند دخولنا . برد سلامنا . ولكن مالبث أن اتصل ما انقطع من الكلام . بعد رجع التحية ورد السلام.

ولما استقر بنا المكان همستُ في أذن البيطار أن ينبئني بأسماء الحاضرين فقال لي : هذا المتصدر فيهم هو الأمير فلان رب الدار وهو رفيق مولانا الباشا في البيت الكريم الخديوى وقد اعتزل الاعمال واعتكف في آخر عمره يتعبد ويتهجد ويسلك طريق النسك والزهد ويتقرب الى الله بدوام القيام والقعود . وطول القنوت والسجود وله أموال عريضة ينفق منها فيما ينفق على قعدة المشايخ وقُوّام أهل الطريقة وطُوّاف الآفاق من سكان الاماكن المقدّسة رجاء ان يغفر الله له ما تقدم من الذنوب وأن يلحقه بالصالحين من أوليائه . وأما الذى عن يمينه فهو فلان باشا كان عضواً من الاعضاء الكرام في مجلس الاحكام . والذى عن جانبه عالم من جلّة العلماء الاعلام والمشايخ العظام . وأما الجالس عن شماله فهو فلان الفريق الجهادى المشهور في الوقائع والفتوح . والذى بعده فلان من كبار المديرين السابقين . وأما الذى تراه في أُخريات المجلس فهو فلان

التاجر من تجار خان الخليلي

(قال عيسى بن هشام) – ولما وقفت من البيطار على معرفة ماعرّفنيه نظرت الى الباشا فأدركت منه انه لا يبغى المبادرة الى كشف أمره قبل انتهاء الحاضرين من حديثهم فأنصت مع المنصتين فاذا الفريق الجهادى يقول فى اتصال حكايته وروايته :

(الفريق) – وكان « جنتمكان » محمد على باشا الكبير معجزة دهره وآية عصره فى الدّهاء وعلو الهمة وبُعد النظر وإحكام عقدة التدبير واجتذاب القلوب وتربية النفوس على الوفاء والامانة لخدمته فكان له من الكُفاة مَنْ خدموه بالصدق وافتدوه بالارواح وأذكر منهم المرحوم «محمد بك لاظ أوغلى » فهو الذى دبر له قطع دابر المماليك فى ساعة واحدة . وقد حكى لى المرحوم أخى وكان حاضراً فى تلك الواقعة الهائلة ان المماليك لما رأوا ان المكيدة فى استئصالهم قد استحكم عقدها واشتد رباطها وأنهم أُحيط بهم من كل مكان تقدموا للبحث عن محمد على فى كل حجرة وزاوية من زوايا القصر للفتك به والتخلص من شره فلم يقفوا له على أثر وأعياهم البحث والتنقيب لان « لاظ أوغلى » أخفاه عنهم شديد الإخفاء وقام له فى ذلك الوقت – ان جاز التشبيه والتمثيل – قيام

علىّ بن أبى طالب مقام الرسول عليه السلام ليلة الهجرة وقد ورث المرحوم محمد على من ذلك الحين تلك الصيحة المزعجة التى لم تفارقه فيما بعد فكان يزأر فى مجلسه بزأرة كزئير الاسود يتقطع من هولها نياط القلوب وقد مات بسببها رجل افرنجى من المصورين كان يقعد له المرحوم لرسم صورته وكان بعض الحجاب نبّهه اليها لئلا يفزع منها فلم يستطعها مع ذلك لشدتها وأدركه الهلاك لساعته . فأين مثل « لاظ أوغلى » لمثله من الولاة وأين مثل تلك الصيحة فى مثله من الرجال (عضو الاحكام) - نعم وكان المرحوم « محمد على » فوق ما يقال وما يتصور فى دقة سياسته لتربية الرجال فى خدمته فكانوا كلهم طرازاً واحداً فى حسن الولاء وجميل الاخلاص وربما كان يجذب الرجل منهم بكلمة واحدة تطبعه له على الصدق فى خدمته طول حياته . ومن ذلك ما حكاه لى صديقنا المرحوم راغب باشا قال: « كنت اقرأ بين يدى المغفور له أوراقا وأنا يومئذٍ كاتبٌ من كتبة معيته فدخل علينا سامى باشا فى أثناء القراءة ووقف معنا فسأله محمد على عما يريده فتلعثم تلعثم المتطلع لخروجى حتى ينفرد به فيعرض عليه ماعنده . فقال لهُ : قل ماعندك فى الحال فانى لا أخفى عن « راغب » سرًّا من اسرارى ولا فرق عندى فى المنزلة بين نسلى وذريتى وبين كتبة معيتى »

فهل تعلمون ياقوم انه يقوم مقام هذه الكلمة فى جلب النفوس وجذب القلوب الى النصح والولاء فى الخدمة إنعامٌ بضياع أو احسانٌ بأموال أو تقليدٌ لرتبة أو نشان . ولقد كان المرحوم راغب باشا كثيراً مايقابل بين هذه الكلمة وبين ما كان يراه فى خدمة الولاة من بعده مثل المرحوم اسماعيل باشا مثلاً فانه كان يتركه وهو اذ ذاك ناظر المالية المصرية والاوراقُ بين يديه وينتقل الى حجرة أخرى للنجوى مع سمسار أو بدّال ويستمر «راغب» فى الانتظار الساعة بعد الساعة واشغال الحكومة الضرورية فى يده ينتظر بها انتهاء المناجاة . فكان اذا قاس هذه بتلك ذهبت هذه بالاحسان والإنعام وبقيت بجانب تلك توخز الصدر وتحزّ فى الفؤاد . فانظروا الى ذلك الرجل العظيم كيف أتقن صناعة الألفة فى تربية رجاله وما للملوك صناعة غيرها فاذا أتقنها أحدهم فاز بالتسلط على النفوس واحتكر مودات القلوب فيصفو لهُ الملك ويطيب له الحكم

(الشيخ العالم) — أصبتَ وصدقتَ وقد اطلعتُ فى التاريخ القديم على واحدة فى هذا الباب للمنصور العباسى تدل على براعته ودقته فى صناعة الملك وهى انه كان يأكل ذات يوم وبجانبه ابناهُ مع شيخ من قواد جيوشه ذهبت أسنانه لكبر سنه فكان يسقط من فمه بعض

الفتات وهو يأكل والاميران يتغامزان عليه فالتفت اليهما الخليفة فرأى مابينهما فمدّ يده فجمع ماسقط من ذلك الفتات فأكله فقام القائد يقول له : لم يبق الاّ دينى أقدّمه لك يا أمير المؤمنين فأمرنى بما تريد

(المدير السابق) — وأنا أقص عليكم واحدة أخرى للمغفور له محمد على تشهد بلطف سياسته وحسن عطفه على الاهالى وشفقته على الرعية وهى ان احد المديرين أراد أن يفوق اخوانه فى الخدمة لينال مكانة عالية من أميره فجدّ فى تحصيل الاموال وتغالى فى طريقته فأخذ ماعند الاهالى من المال جملة واحدة فضج ضجيجهم واشتد صياحهم حتى بلغ مسامع ولىّ النعم فأمر باحضار المدير فلما وقف فى حضرته قال له : ادن منى . فلما دنا منه اخذ بعنقه فى قبضة يده وصار ينتزع من رأسه شعرة ومن قفاه شعرة ومن عارضه شعرة ومن حاجبه شعرة حتى جمع فى قبضته خصيلة من الشعر والمدير لايجد لذلك من الألم الا أثراً خفيفاً ثم ان الامير انتقل الى لحية الرجل فانتزع منها خصيلة دفعة واحدة من جهة واحدة بمقدار تلك الخصيلة المتفرقة فنبع من تحتها الدم وصرخ المدير من شدة الألم فقال له محمد على « هكذا تختلف المعاملة مع الرعية فى جباية الاموال اذا أنت أخذت من هنا

درهماً ومن هنا درهماً آناً بعد آنٍ خف الوقع على الاهالى ولم يدركوا الألم وتحصلت منهم على مثل المقدار الذى تأخذه جملة واحدة فى وقت واحد مع شدة الألم كما رأيت الفرق بين انتزاع الشعرات متفرقات وبين انتزاعها مجتمعات والكمية واحدة والألم بينهما مختلف فإياك ان تعامل الناس بعد اليوم بما يلجئهم الى الشكوى ويجرؤهم على الاستغاثة »

وأعرف له واحدة أخرى فى حسن الإجمال والإدماج وذلك انه صدر أمره الى المرحوم « حسن باشا الانجيركويلى » بتعيينه حاكماً على السودان فامتنع الرجل واظهر عجزه لجهله باللغة العربية وقال : كيف يمكن لى ان أتولى امور قوم لا اعرف حرفاً واحداً من لغتهم . فدعاه محمد على وقال له : ليست معرفة اللغة مما تقضيه ولاية الاحكام ولا هى أداة لازمة للحكم يختل بفقدها وما عليك فى منصبك هذا الا ان تكتفى بمعرفة كلمتين اثنتين من اللغة العربية يجرى بهما لسانك وهما « فلوس » « كرباج »

ولو تأمل المرحوم حسن باشا هذا فى ان محمد على حكم الامة المصرية الدهر الطويل وفتح البلاد العربية ولم يكن ينطق بكلمة عربية فى حياته — فما منعه ذلك من تسديد الحكم وتشييد الملك — لم يعتذر عن قبول المنصب بمثل هذا الاعتذار

ومن النوادر التي يُستشهد بها فى هذا الباب ان محمد على أمر بأن يكون اهل العاصمة رديفاً عسكرياً ثم عين عليهم ضباطاً منهم بالرتب العسكرية فدخل عليهِ وفد من أولئك الضباط وكان الذى يترجم بينهُ وبينهم المرحوم صبحى باشا فقال لهم محمد على كلاماً يقتضى الاجابة بالشكر عليه فقال لهُ متكلمهم : « ناشَكْ يا افندينا » ـ وهى كلمة عامية منتشرة فى ذلك الزمن بين العامة يقولونها عند الاستحسان والاعجاب ـ فظهر الغضب على وجـه محمد على لانهُ فهمها على اللفظ التركى : « نَهْ أَشَكْ » فأسرع صبحى باشا بتفسيرها لهُ فاستلقى الامير على ظهره من شدة الضحك . فأىّ فائدة حينئذٍ من معرفة اللغـة العربية اذا كان اهلها لايجدون فى مخاطبة اميرهم غير هذه الالفاظ الساقطة السافلة . والذين تولوا زمام المصريين من الامراء والوزراء ولم يكونوا يعرفون لغتهم عدد ليس بالقليل

(الشيخ العالم) منشداً — :

فلا تكثروا ذكرَ الزمان الذى مَضَى فذلك عصرٌ قد تقضّى وذا عَصْرُ

ورحم الله الماضى وأَعاذنا من الحاضر وأجارنا من المستقبل . وانى لأراكم ايها الامراء مهما أسهبتم فى محاسن المغفور لهُ وأفضاله . وأطنبتم فى حميد اخلاقه وخصاله . فلستم ببالغى حق الشكر . ولا

موفين بجميل الذكر . ويكفيه من الحسنات التي يغني ذكرها عن الاجمال والتفصيل . وتحكم له بالسبق في باب التمييز والتفضيل . انه كان يقرّب العلماء ويعظمهم . ويدنيهم منه ويكرمهم . ثم يقضى حاجاتهم . ويتبرك بدعواتهم . ولقد رأيت له رؤيا صالحة تحكم له فى أخراه . بأن له جانباً مع الله . وانه نال جزاء الاحسان . بسكنى فراديس الجنان

قال عيسى بن هشام - وأقبل فى أثناء هذا الحديث رجل من اهل مكة المعروفين بالمطوِّفين أو المزوِّرين فتقدم الى رب الدار فقبّل يده والى الشيخ العالم فلثم ذيله ثم وضع عن يده صرة فأخرج منها قطعة من الحرير الأخضر وجزأً من التمر ومشطاً ومكحلة وسبحة وشيئا من الحنّاء ثم قرأ الفاتحة وخاطب الامير بقوله :

(المكّىّ) - قد جئتك ايها الامير بالقطعة التى امرتنى باحضارها من الكسوة الشريفة وأتيتك بجزء من تمر النخلة المباركة التى غرستها الزهراء البتول بيدها الكريمة

(الامير للخدم) - علىّ بالمعلم مِسيحه الباشكاتب ومعه الكيس لنعطى هذا المسافر جائزته

(وحضر المعلم مسيحه ودنا من الامير فلما بصر بتلك الهدية المباركة

بين يديهِ انكب على وجههِ يقبلها واحدة بعد واحدة ويقول للامير وهو يتبرك بها ويتيمن) :

(المعلم مسيحه) — تالله ما أنقذ ابنى من عماه الا هذا الكحل المبارك ولا شفى والدته من داء الرعدة الا هذه الحناء الطاهرة

(الشيخ العالم) — بعد ان ذاق التمر واستطابه — إيه إيه صدقت ايها الرجل ومن كان صائماً فأفطر على تمر المدينة كُتبت له الجنة

قال عيسى بن هشام — فرأيت الباشا يتأفف بجانبي ويزمجر ويتململ ويتضجر ويهم بأن يتكلم فالتفت صاحب الدار عند ذلك الى البيطار يسأله عن شأن هذا المتأفف المتضجر . فتقدمت له بشرح القصة على الحاضرين وذكرت خروج الباشا من القبر ورجوعه إلى الدنيا فمنهم من صدّق ومنهم من كذب فتنحنح الشيخ العالم وأشار فيهم باشارة الاستماع ثم اندفع يقول :

(الشيخ العالم) — اعلموا انه ليس للمعجزات حد ولا للخوارق حصر ولا تنكروا على الرجل حياته بعد موته . فليس من حسن اليقين . ان ننكر بعث الدفين . والرجوع الى الدنيا بعد الفناء . أمر معلوم بلا امتراء . تخص القدرة بهِ من تشاء . ببركة الأصفياء والأولياء . وأقرب ما أستشهد لكم بهِ على ذلك من كتاب « مناقب

تاج الأولياء وبرهان الأصفياء القطب الربانى والغوث الصمدانى السيد عبد القادر الكيلانى » ما أرويه لكم بحرفهِ ونصه :

« ذكر فى رسالة حقيقة الحقائق ان امرأة غرق ولدها فى اليمّ وجاءت الى الغوث الأعظم وقالت : ان ولدى غرق فى البحر واعتقادى جازم بأنك تقدر على رد ولدى الىّ حياً . فقال لها رضى الله عنهُ : ارجعى إلى بيتك تجدى ولدكِ فى بيتك . فراحت ولم تجده . فجاءت ثانية وتضرعت فقال لها الغوث أيضاً : ارجعى الى بيتك تجدى ولدك فى بيتك . فراحت ولم تجده . فجاءت ثالثة بالبكاء والتضرع فراقب الغوثُ وانحنى برأسه ثم رفع رأسه فقال لها : ارجعى الى بيتك تجدى ولدك فى البيت . فراحت ووجدت ولدها فى البيت فقال الغوث الأعظم بطريق المحبوبية : ياربّ لِمَ أخجلتنى مرتين عند تلك المرأة . فجاء الخطاب من الملك الوهاب : ان كلامك حين قلت لها كان صدقاً ففى المرة الأولى جمعت الملائكة أجزاءه المتفرقة وفى المرة الثانية أحييته وفى الثالثة أخرجته من اليمّ وأوصلته الى دارها . فقال الغوث : يارب خلقت الاكوان بأمر « كُنْ » ولم يسبق زمان ولا آن وفى وقت البعث تجمع أجزاءها المتفرقة التى لا نهاية لها وتحشرهم فى طرفة عين وجمعُ أجزاء جسدٍ

واحد وإحياؤه وبعثهُ الى دارها شئ جزئى فما الحكمة فى هذا التأخير . فجاء الخطاب من الرب القدير : اطلبْ ما تطلب فقد أعطيناك عوضاً من انكسار قلبك فتضرع الغوث ووضع وجههُ على التراب وقال : يارب أنا مخلوق فبقدر مخلوقيتى يليق بى الطلب وأنت خالق فبقدر عظمتك وخالقيتك يليق بك العطاء . فجاءه الخطاب كل من يراك يوم الجمعة يكون ولياً مقرَّباً وإذا نظرتَ إلى التراب يكون ذهباً . فقال : يارب ليس لى نفع من هذين أعطنى شيئاً أعظم منهما ويبقى بعدى لينفع فى الدارين . فجاء الخطاب من الله العزيز القدير : جعلت أسماءك مثل أسمائى فى الثواب والتأثير ومن قرأ اسماً من أسمائك فهو كمن قرأ اسماً من أسمائى »

ورُوى فيهِ أيضاً عن السيد الشيخ الكبير أبى العباس أحمد الرفاعى رضى الله عنه قال : توفى أحد خدام الغوث الاعظم وجاءت زوجته الى الغوث فتضرعت والتجأت وطلبت حياة زوجها فتوجه الغوث الى المراقبة فرأى فى عالم الباطن ان ملك الموت عليه السلام يصعد الى السماء ومعه الارواح المقبوضة فى ذلك اليوم فقال : ياملك الموت قفْ وأعطنى روح خادمى فلان (وسماه باسمه) فقال ملك الموت : انى أقبض الارواح بامر إلهى وأؤديها الى باب عظمته كيف يمكننى

ان أعطيك روح الذى قبضته بأمر ربى . فكرر الغوث عليه إعطاء روح خادمه اليه فامتنع من إعطائه وفى يده ظرف معنوى كهيئة الزنبيل فيه الارواح المقبوضة فى ذلك اليوم فبقوّة المحبوبية جرّ الزنبيلَ وأخذه من يده فتفرقت الارواح ورجعت الى أبدانها . فناجى ملك الموت عليه السلام ربه وقال : يارب أنت أعلم بما جرى بينى وبين محبوبك ووليّك عبد القادر فبقوّة السلطنة والصولة أخذ منى ما قبضته من الارواح فى هذا اليوم . فخاطبه الحق جل جلاله : ياملك الموت ان الغوث الاعظم محبوبى ومطلوبى لِمَ لا أعطيته روح خادمه وقد راحت الارواح الكثيرة من قبضتك بسبب روح واحد فتندم هذا الوقت »

قال عيسى بن هشام ـ وما انتهى الشيخ من روايته حتى رأيت الباشا قد انتفض قائماً يقول لهم والغضب بادٍ على وجههِ والغيظ يتقد فى صدره :

(الباشا) ـ اعلموا أيها الاخوان ان مغفرة الرحمن وسكنى الجنان لا تُنال بكثرة الصوم وأكل التمر أو التبرك بالآثار والتحصن بالأوراد وما تكتسب الدرجة الرفيعة عند الله الا بالعدل والاحسان وفعل الخير واجتناب الشر والرحمة بالضعفاء والمساكين من عباد

الله . وقد غرني في دنياي ما يغركم الآن فكنت أسمع قبل مماتي من مثل هذا الشيخ العالم ما يهوّن عليّ ارتكاب المخزيات وفضائح الشرور في معاملة الناس ارتكاناً على نهارٍ أصومه . وليل أقومه . وحرزٍ أحمله . وأثرٍ أقبّله . فنمتُ عن عمل الخير وغفلت عن بذل المعروف فلما توفاني القدير العليم وسكنت في حفرة القبر علمت ما لم أكن اعلم فلم يغنني ذلك وحده من الله شيئاً . وما خفف عليّ أهوال القبر وهوّن عليّ سؤال الملك الا حسنة واحدة كنت أتيتها في إغاثة مظلوم استجارني فأجرتُهُ وهو في يد الجلاّد بين السيف والنطع . فعليكم بالعدل والاحسان وتقوى الله في عباده وإفشاء البر والمعروف في خلقه ولا تطيعوا النفس الامارة بالسوء فتركنوا الى الاغترار بالامل . وتطلبوا المغفرة بلا عمل . بل استكثروا من الخير قبل حلول الاجل . وتذكروا قول الله الأجل : « ومَنْ يَعملْ مثقالَ ذَرّةٍ خيراً يَرَهْ » واتّعظوا بقول عليّ رضي الله عنه : « كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والظمأ وكم من قائم ليس له من قيامه الا السهر والعناء » . واسمعوا القول حكيم الشعراء :

ماالخيرُ صومٌ يذوب الصائمون له ولا صلاةٌ ولا صوفٌ على الجسدِ
وانما هو تركُ الشر مُطّرحاً ونَفضُكَ الصدرَ من غلٍّ ومن

(الشيخ العالم) - انى لَإِخالك أيها الرجل شيطاناً في زيّ انسان وزنديقاً يتستر بدعوى النشور من القبور . تعساً لهذا الزمن ماأكثر أضاليله وبؤساً له ما أعظم أباطيله ولم يبق علينا من مُدّخرات عجائبه الا ان يخرج الميت من قبره فيخبرنا بما رأى فيه وبما سمع

(صاحب الدار للباشا) - سألتك بالله ان تخبرنى بأية لغة كان سؤال الملكين لك أبالعربية أم التركية أم السريانية فان هناك اختلافا وأقوالاً بين العلماء

(الشيخ العالم) — ناشدتكم الله ان تقصروا عن هذا الرجل ولا تخاطبوه فانه فتنة من فتن إبليس اللعين ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال عيسى بن هشام - فلم يسع الباشا الا الخروج من هذا المجلس وهو يهدر ويغلي ويستعيذ ويستعدى فانخرطتُ وراءه وأنا اذكر قول عمر رضى الله عنه فى مثل هذا الشيخ الغليظ البَدِين «ان الله يبغض الحَبْرَ السمين» وأردّد قول أبي تراب كرم الله وجهه «أشكو الى الله من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضُلّالاً ليس فيهم سلعة أبْوَرَ من كتاب الله اذا تُلِيَ حق تلاوتِهِ ولا سلعة أنْفَقَ بيعاً وثمناً من الكتاب اذا حُرِّف عن مواضعهِ ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعْرَف من المنكر»

ولحقَ بنا البيطار فى خروجنا ومعه التاجر الذى كان مقيماً فى المجلس يناديا بنا فوقفنا لهما فتقدم التاجر الى الباشا ومال على يده يقبلها ويقول له:

(التاجر) ـ أُشهد الله أيها المولى انى مصدق بأمرك وليس بعد العيان من برهان وما أخطأ نظرى فيك فأنت سيدى الباشا بعينهِ وأنت صاحب اليد التى أتذكرها طول عمرى. ومابى من نعمة فمنك وما أصبحتُ فيه من ثروة فبيُمنك وفضلك ولستُ أنسى ان اصل شهرتى واتساع تجارتى هو انك جلست في دكانى مرة عند ماعثرتْ بك رجلك وانت تقصد زيارة الحسين فارتفع بتلك الجلسة قدرى واشتهر ذكرى وأقبل علىّ الناس من دون التجار لتوهمهم فيّ انلى برحابك صلة وبجنابك نسبة فأصبحتُ ولله الحمد فى غنًى متسع ومالٍ كثير وقد بلغنى من أحمد أغا هذا ما أنت فيه من الحاجة الى الدراهم لأجرة المحامى التى جاءت بك الى هذا المجلس ولكنك أنفت من ذكرها عند ماغضبتَ لله. وأنا اتضرع اليك بخالق الخلق ان تتنازل فتقبل منى ماتسد بهِ حاجتك وتتخلص بهِ من مطالبة المحامين

(وأخرج التاجر كيساً مملوأ فقدمه الى الباشا وهو يرتعد من خيفة الرد فأخذه الباشا وقال له):

(الباشا) ـ انى اشكرك جميل الشكر لحسن صنيعك وأسأل الله

لك حسن الجزاء فهلمّ اكتب لك صكاً بالمال لأردّه اليك عند استرداد أوقافي

(التاجر) - حاشا لله ان أكون من أهل هذا الزمن الذين اصبحوا لا يثقون ببعضهم بعضاً فلا يأمن الأخ أخاه ولا الوالد ولده ولا الصاحب صاحبه ولا الجار جاره على درهم واحد الا بعقود وصكوك بل أنا لا ازال من أهل ذلك الزمن الذى لم يكن يتعامل التجار فيه بينهم بغير الثقة والائتمان دون احتياج الى تحرير الاوراق وتسطير الصكوك . وما يكون الاستيثاق الا عند توهم الخيانة والعياذ بالله

قال عيسى بن هشام - فكرر الباشا شكره للتاجر مضاعفاً وقال لى: انصرف بنا الى المحامى نستنقذ رقابنا من أسره ثم نذهب الى المحكمة الشرعية للمطالبة بالوقف . فقلت له لا بد لنا من محام شرعى يطالب لنا بحقنا . فما نخرج من قبضة محام . الاّ الى قبضة محام . ونسأل الله السلامة فى الختام

*
* *

قال عيسى بن هشام - وأخذتُ طريقى . مع رفيقى . أَنشد صاحباً أسترشده . فى محام شرعىّ أقصده . . وبينا نحن نسير . ونسأل الله التيسير . اذا بصاحب لى عرفته . فاستوقفته . قال ماخطبك قلت

قضية . فى المحكمة الشرعية . فما طرق الخبر سمعه حتى أجرى دمعه . وهوّل الامر وهوّلت . وحوقل وحوقلت . ثم قال لقد وقعت قبلك فى هذا البلاء . ولمّا تم لى النقاهة من الداء . وأنا أنصح لك ان كنت مدعياً ان تترك دعواك . وتصبر على بلواك . أما ان كانت الدعوى عليك . فليس الخيار اليك . ولا مردّ لحكم القضاء . بتدبير الاراء . فقلت للضرورة أحكام . فأرشدنى لانتخاب محام . يكون مشهوداً بعدالته . مشهوراً بطهارته . بعيداً عن خُلف الوعد . بريئاً من خُلق الوغد . لا يتفق مع الخصم . ولا يسرق من «الرسم» . قال اطلبْ من أنواع المحال . أن يحمل الذرُّ الجبال . ولا تطلب فى محام اجتماع هذه الشروط . فينتهى بك الأمر الى اليأس والقنوط . ولَمحاولةُ الارتقاء . فوق متن العنقاء . أيسرَ من ذلك مطلبا . وأوسع مذهبا . والمحامون الشرعيون — حماك الله — يستوون لدى الاختيار . كأسنان المشط وأسنان الحمار . بل هم جميعاً كحمارَى العبادىّ قيل له أى حماريك شرّ قال هذا ثم هذا . وأُقسم لك بخالص الود . أنى لا أثق منهم بأحد . وكيف تكلفنى أن انتقى لك ذئبا من الذئاب . وأحمل على كاهلى عبء اللوم والعتاب . فأعفنى من هذا الاختيار والانتقاء . عافاك الله من جميع الأسواء . ثم ما لبث ان خلّفنى

ومضى . وتركنى على مثل جمر الغضى . فسرت كئيبا حزينا . أبغى سواه مرشدا ومعينا . ولما لم أجد من أصحابى مَن يأخذ على عهدته . اختيارَ محام يوثق بذمته . قصدت أحد المعلومين عندى بكثرة الخصومات . وطول المحاكمات . فكاشفتُه بطلبتنا . ليكشف من مصيبتنا . فقال اعلمْ ان المحامين الشرعيين أجناس وصنوف . فمنهم المبصر ومنهم المكفوف . وفيهم - كتب الله لك السلامة - . صاحب « الطربوش » وصاحب العمامة . وانا أدلك على أهونهم شرّا . وأقلّهم ضرّا . وأخفّهم رزيةً وبليّة . وأكثرهم علماً بالحيل الشرعية . فعليك بفلان وبيته معلوم . فى منتهى « حارة الروم » - فقصدنا البيت نشقّ طرقاً معوّجة . ونخترق ثنيّاتٍ مزدوجة . الى ان انتهينا الى باب دار . كأنها مطلية بالقار . تُسوّرتْ بأكوامٍ من الاقذار . وتلفعت بتلالٍ من الأوضار . ورأينا عند مدخل الباب . صِبيةً يلعبون بالتراب . ومن بينهم طفلة تجمّعَ على وجهها من الذباب . مثل البرقع تنقبت بهِ قبل أوان النقاب . ولما تخطيناهم غشيتنا رائحةُ المرحاض . فاستندنا هناك على هضبة أنقاض . بجانبها مِذوَدٌ أتان . تزاحمها عليه إوَزّتانِ وبطّتان . ثم اهتدينا الى حجرة فى جهة اليمين فرأينا أمامها فرّاناً ينادى : « العجين » « والاجرة » . فسألناه عن رب الدار

فأشار الى الحجرة . فدخلنا فوجدنا فيها حصيراً تغطّى بالغبار والحصباء . ومتكئاً تعرّى من الفرش والغطاء . وفى زاوية من زوايا الاركان . سراجٌ لا ينفذ نورُه من تكاثف الدخان . وفى أعلى رفوف الرواق . أحمال كتبٍ وأوراق . قام لها نسيج العناكب مقام الوقاية والتجليد . وألصقتها الرطوبة تحفظها من التوزيع والتبديد . وفوق الارض زجاجات مطروحة من المداد . وفى بياض الحائط تسويد وتخطيط من لعب الاولاد . وبَصُرنا برجل :

فهل غيّر الظّهرَ لمّا انحنَى تغيّرُ حِنَّاؤهُ شيبَهُ

ووجدناه جالساً على سجادة الصلاة . وعن يساره امرأة كأنها السعلاة . فسمعناه يقول لها فى تسبيحه : « أتستكثرين — أدرّ الله عليك خيرَه . وأبدلكِ زوجاً غيرَه . — ما أخذتُهُ منكِ لاستنباط الحيلة فى التفريق . واستخراج الحكم بالتطليق . فأبعدتُ عنك زوجاً تكرهينَه . لتتبدّلى منه زوجاً تحبينه » . ثم انه استحس بدخولنا من ورائه . فارتدّ الى اتصال تسبيحه ودعائه . وانتفضت المرأةُ فتنقبت بخمارها . وتلفعت بإزارها . وخرجتْ وتركتنا مع رجل يخدع الانام بطول صلواته . ويتلو سورة الأنعام فى ركعاته :

اذا رامَ كيداً بالصلاةِ مُقيمُها فتاركُها عمداً الى الله أقربُ

وجلسنا مدة ننتظر خلاصه من هذا الرياء . وخلاصَ المسكين من صحيفته السوداء . وخلاصنا من هذا الكرب والعناء . فاذا هو قد وصل المغرب بالعشاء . وكنا نشاهد منه فى خلال ذلك نظرات مختَلَسات نحو الباب . كأنه هو أيضاً فى انتظار وارتقاب . الى ان دخل علينا غلام يصيح به : الى متى هذه العبادة . فقد بَليتْ السجادة . وحاجاتُ الناس موكولة اليك . وقضاء مصالحهم موقوف عليك . وهـذا دولة البرنس ينتظرك فى القصر . منذ العصر ودَعْ مدير الاوقاف . ونقيب الاشراف . » فلم يعبأ المصلّى بهذا الكلام . بل جهر بالآية من سورة الانعام : « قُلْ إن صلاتى ونُسُكِى ومَحياىَ ومماتى للهِ ربّ العالمين لاشريكَ له وبذلك أُمرتُ وأنا أوّلُ المسلمين » . فجلس غلام الشيخ وهو يمسح العرق . واشتدّ بنا الضجر والقلق . فقلنا من يضمن لهذه الصلاة انتهاء . ولهذا التسبيح انقضاء . وهممنا بالقيام . فالتفت الشيخُ للغلام . وأشبعه من التأنيب والملام . ثم حيَّانا بألطف سلام . وقال بارك الله فيكم وعليكم . وانا فى الخدمة بين يديكم . فقلنا علمنا أنك رجل عدل عف . فجئناك لقضية فى وقف . فقال الغلام أتطلبون رَيعَه . أم تريدون بيعَه . فقلت سبحان الله وهل تباع الاوقاف . قال نعم ويباع جبل قاف .

ثم تنحنح الشيخ وسعل . وبصق وتفل . وتسعط . ثم تمخط . واقترب منا ودنا . ثم قال لنا :

(المحامى) — دعونا من هذا الغلام وقولا لى ماهو الحق فى الوقف وما هو شرط الواقف وكم يقدّر ثمن العين لتقدّر « قيمة الاتعاب » بحسبه

(عيسى بن هشام) — ان لصاحبى هذا وقفاً عاقته عنه العوائق فوضع سواه عليه يده ونريد رفع الدعوى لرفع تلك اليد

(المحامى) — سألتك ماهى قيمة العين

(عيسى بن هشام) — لست أدرى على التحقيق ولكنها تبلغ الألوف

(المحامى) — لا يمكن ان يقلّ مقدّم الاتعاب حينئذ عن المئات

(عيسى بن هشام) — لا تشطط أيها الشيخ فى قيمة الاتعاب وارفق بنا فاننا الآن فى حالة عسر تقضى عليك بذلك

(الغلام) — وهل ينفع فى رفع الدعاوى اعتذار بإعسار ألم تعلم ان هذا شغل له « اشتراكات » وللكتبة والمحضرين « تطلعات » وأنى لكما بمثل مولانا الشيخ يضمن ربح الدعوى وكسب القضية بما يهون معه دفع كل ما يطلبه فى قيمة أتعابه وهل يوجد مثله أبداً فى سعة العلم بالحيل الشرعية ولطف الحيلة في استمالة محامى الخصم واستجلاب عناية القضاة

(عيسى بن هشام) - هذا والله كل ما يمكننا دفعه الآن من الدراهم ونكتب بما يبقى صكاً لحين كسب القضية وليس يفوتك شيء من ذلك مادام ربحها مضموناً لديك على كل حال

(المحامى) بعد ان استلم الدراهم يعدّها - أنا أقبل منك هذا العدد القليل الآن ابتغاء ما ادّخره الله لعباده من الأجر والثواب فى خدمة المسلمين . وعليك بشاهدين للتوكيل

(عيسى بن هشام) - وبأية طريقة يكون التوكيل

(المحامى) - يجب عليك ان تستحضر شاهدين يشهدان أمام المحكمة بأن فلاناً بن فلان بن فلان وكّل فلانا بن فلان بن فلان في المرافعات والمدافعات والمخاصمات والمصالحات والقبض والاستلام والتسليم وفى المطالبة والدفع والاقرار وفى كل ما يصح فيه التوكيل شرعا وفي أن يوكّل عنه فى الدعوى غيره وان يعزله وان يفعل ذلك مراراً وتكرارا كلما بدا لهُ فعله المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة » وأنا أنتظر حضوركما غدا مع الشاهدين ومستند الوقف

(عيسى بن هشام) - ليس لدينا الآن إلاّ شاهد واحد يعرف أصل الباشا ونسبه

(غلام المحامى) - هذه أول خطوة فى تكاليف القضية ومشاقها

ولعلك تعرف قيمتها ونحن نجد لك بتيسير الله من يعرف أصل الباشا ونسبه ويشهد به بين يدى الحق

(عيسى بن هشام) — وليس فى يدنا أيضا مستند للوقف

(المحامى) — أما من جهة المستند فينبغى استخراج صورة من السجل «المصان» (كذا) وهذه خطوة ثانية فى متاعب القضية

قال عيسى بن هشام — وعند ذلك قطع الشيخ المحامى كلامه معنا واستقبل القبلة بوجهه وقام لصلاة العشاء فقمنا للانصراف. وسرت مع صاحبى وأنا غريق فى الافكار أتدبر وأعتبر وأعجب مما رأيت من سكون الباشا وسكوتهِ وحسن احتماله وصبرهِ بعد ان كان شديد الحدة سريع الغضب يرى القتل واجباً لأَدنى هفوة وأقل سبب فأصبح بفضل وقوعه فى هذه الخطوب المتتالية والرزايا المتتابعة لين العريكة واسع الصدر موطّأ الكَنف كثير الاحتمال حتى انه لم يأنف ولم يتأفف من كل ما رأيناه فى يومنا هذا بل كانت حالته حالة الفيلسوف الحكيم الذى يجعل دأبه البحث والتأمل فى أخلاق الناس أثناء التعامل معهم وازددتُ يقينا بأنه لا شىء أسرع فى تهذيب النفوس وتربيتها على التخلق بالاخلاق الفاضلة مثل ممارسة الخطوب ومصارعة النوائب وأنّ أسوأ الناس أخلاقاً وأنكدهم عيشاً هم هؤلاء

الأغمار المنعَّمون المترفون الذين لم يأخذوا العيش عن تجارب الحدثان ولم تهذبهم صروف الازمان. ولم يزدنى الباشا فى كلامه أثناء الطريق على ان قال :

(الباشا) — قلتَ لى ان المحامين الشرعيين فيهم صاحب الطربوش وصاحب العمامة فهل تراهم جميعاً على هذا النمط الذى شاهدناه أم يوجد بين الفريقين فرق

(عيسى بن هشام) — اعلم أن الخيرة فى الواقع والحمد لله على كل حال فان فيهم تحت « الطربوش » من هو أشد فتكاً من ضوارى الوحوش . وأعرفُ طربوشاً منهم أقسم أمامى بالطلاق ثلاثاً من زوجته ومن كل زوجة يتزوج بها فى حياته على إنكار كلام نطق بهِ فى مجلس كنتُ حاضرَهُ إرضاءً لأحد أرباب القضايا وإغضاباً لخالق البرايا واستهانةً بحكم الشارع واعتماداً على قول الشاعر :

وإنْ أحلفونى بالطلاقِ أتيتُها ... على خيرِ ما كُنّا ولم نتفرّقِ
وإنْ أحلفونى بالعتاقِ فقد دَرَى ... عُبيدٌ غلامى أنه غيرُ معتَقِ

قال عيسى بن هشام — ومضت علينا الايام ونحن نقصد الشيخ المحامى فى كل يوم فلا نتمكن من لقائه فان ذهبنا اليه فى البيت قيل لنا انه فى المحكمة وان ذهبنا الى المحكمة قيل لنا انه فى القصر الفلانى أو القصر

الفلانى من قصور الامراء والكبراء حتى حفيت الاقدام ومللنا الاصطبار فاخترنا ان نربط له أمام بيته عند الثلث الاخير من الليل فنصطاده عند خروجه وقعدنا بعيداً عن الباب حتى خرج علينا راكباً أتانهُ فتقدمت اليه فقال لى أرجو المسامحة فى هذا التأخير فالذنبُ فيه لكثرة مشاكل الامراء ودعاويهم فتقبلنا عذره وتوجهنا معه الى المحكمة فذهب بنا « الى كاتب الاشهادات » فوجدناه جالساً يلمع فى ثيابه من حمرة الحذاء فى رجله وزرقة الجبة على كتفه وصفرة الحزام فى خصره وبياض العمامة فوق رأسه

تعدّدتْ ألوانهُ كأنهُ قوسُ قُزَحْ

وكان الشيخ المحامى قد تركنا مع الغلام والشاهدِ الذى اختاره لنا فنظر الكاتب الى الشاهد نظرة المتوقف وقال انه شاب صغير السن وانه وانه ... فمال عليه غلام المحامى وألقى فى أذنه بعض القول فقام معنا من فوره الى قاضى الجلسة لسماع الاشهاد بعد ان قال لنا الغلام: وهذه الخطوة الثالثة فى تكاليف القضية . ثم انتهى الاشهاد بحمد الله وحسن العناية بنا فى مسافة يوم واحد . وقال لنا الغلام عند الانصراف: يجب بعد هذا ان نقدم عريضة لحضرة القاضى بطلب الكشف من الدفترخانة عن الوقفية فى السجل وأن نوضح فيها نمرة الوقفية وتاريخها

ومن عملية مَنْ هى (يعنى اسم الكاتب الذى كتبها فى زمانها) نخرجنا نبحث على احمد أغا البيطار لعله يعرف طريقة توصلنا الى مطلوبنا فعثرنا عليه وأعلمناه بغرضنا فقال ان عندى ورقة فيها نمرة الوقفية كنت تحصلت عليها بطرق مختلفة بعد الجهد الجهيد والزمن المديد لاثبات حقى فى ريع الوقف . ثم ذهب الى بيته وعاد الينا بالورقة فوجدناها قاصرة على ذكر النمرة والتاريخ ولم يذكر فيها اسم الكاتب الذى عمل « العملية » فقصدنا غلام المحامي وتوجهنا معه الى المحكمة فكتبنا العريضة وقدمناها لحضرة القاضى فوضع عليها اشارة لحضرة الباشكاتب ليتحرى عن مسألة « الشأن » وطلبوا مناشهوداً يشترط فيهم ان يكونوا من أهل جيل الباشا ليثبتوا شخصيته ويشهدوا بانه صاحب الوقف وأن سواه وضع يده عليه فأدركتنا الحيرة فى الامر فتكفل لنا الغلام باستحضار أولئك الشهود أيضاً بعد ان قال لنا : وهذه الخطوة الرابعة فى تكاليف القضية . ولما نظر الباشكاتب فى العريضة ووجد أننا لم نبين فيها اسم الكاتب صاحب « العملية » قال لنا انه لا يمكن الاهتداء فى الدفترخانة بدون ذلك وانه لابد لنا من انتظار السنين والاعوام حتى يمكن العثور على صورة الوقفية فى السجل بالنمرة والتاريخ وحدهما . فعاودتنا الحيرة فقال لنا الغلام : لاتحزنا فأنا أساعد على

سرعة الانجاز وأتوجه معكما الى الدفتر خانة ان شاء الله . وهذه هى الخطوة الخامسة فى تكاليف القضـية » . وما يزال الخبيث يعدُّ لنا الخطوات . ونعدُّ له فى كل خطوة دُريهمات . ونحن نسأل الله ان ينقذنا مما اصابنا من حكم الدهر . وأن يعجّل بانقضاء القضية قبل انقضاء العمر .

***

قال عيسى بن هشام — وعكفنا زمنا نشتدّ فى الطلب . والمحامى يشتدمنا فى الهرب . فلما طال علينا الامد فى ارتياده . ويئسنا من لحاقه واصطياده . انتقلنا للبحث عن غلامه . حتى قبضنا على زمامه . فرأينا الخبيث يصعّب فى الامور والاحوال . لنسترضيه بالعطاء والنوال . وقال لنا أقول لكما الحق والحق أقول . انه ليس من المتصور المعقول . ان نهتدى فى هذه القضية . الى صورة الوقفية . بمجرد تاريخها أو اسم صاحبها . دون الوقوف على اسم محررها وكاتبها . ولا يجول فى الخواطر والأوهام . ان يعثر عليها كاتب السجل بين تلك الآكام . من غير وحى أو إلهام . الاّ بعد كرّ السنين ومرّ الاعوام . وان اعتراكما بعض الشك أو الريب . ولم تصدّقانى بظهر الغيب . فهلمّا معى أطلعكما على ما يزول معه اللبس . وتقتنع به النفس . فقيدناه بقيود الترغيب والتأميل . وأعطيناه ما يحضرنا من كثيرٍ وقليل . فانطلق أمامنا يثب ويحجل . حتى دخلنا

بيت السجل . فلما جاوزنا الباب . حيث يجلس الكتاب . ألفينا خشباً مسنّدة . على خُشُب موطّدة . وهيا كلَ تفترش الفرِا . فوق الثرى . لا تميز منهم وجه انسان من انسان . لعشوة البصر من ظلمة المكان . فتذكّر الباشا عند ذلك ظلام الرمس . وكرّ راجعاً ينتظرنا فى ضوء الشمس . ثم مال الغلام الى أذن أحدهم يكلمه . بما لا أعيه ولا أفهمه . فبادر الرجل بالنهوض والقيام . وسار بالغلام وأنا فى عقب الغلام . فما خطونا بضع خطوات حتى حيل بيننا وبين ضوء النهار . وتجللنا من حندس الليل بحجبٍ وأستار . فوقفت لا أبصر ولا أهتدى . فأخذ الغلام بيدى . وقد عميت علىّ وجوه المسالك . فى هذه المخاوف والمهالك . وسرتُ فوق أرض تهَش تحت القدم وتلين . كأنها مفروشة بالهشيم تلبّد فى الطين . وما زلنا نمشى فى أنحاء تلك المطمورة . على هذه الصورة . حتى تخيلتُ أننى فى قبور قدماء المصريين . أو فى هياكل الاسرار بمعابد الرومانيين . أو فى طريق الامتحان عند أحرار البنائين . فوجب القلب - من شدة الرعب . خشية أحبولة نُصبتْ . أومكيدة رُتبت . ووجمت . ثم أحجمت . وقلت للغلام ليس بيننا مايوجب للاحتيال . أو يدعو للاغتيال . وماذا تريد منى فى هذا الغيهب . وليس معى من فضة ولا ذهب .

ولا مِن شئ يُستلب أو يُنتهب . فقهقه الفاجر ثم أقسم بالله وثنّى بالطلاق . أننا نسير فى أمان بين غرائر الدفاتر ولفائف الاوراق . وقال كنْ آمناً مطمئنا على نفسك . وسترى الحقيقة بعينىْ رأسك . وما كاد الشقىّ يتم لى هـذه العبارة . حتى عثرتْ قدمى فى لفافة فوقعتُ على غِرَارة . واذا بصائح يصيح من تحتها متبرّماً متأففا . ويقول لى متغطرسا متعجرفا : ما هذه العشاوة ياعديم الإبصار . ونحن لا نزال فى أديم النهار . فقمتُ متثاقلاً متساندا . وقلت فى نفسى منشدا :

دُجًى تتشابهُ الأَشياءُ فيهِ ... فيَجْهلُ جنسهَا حتى يَصيحَا

ثم تأملت فاذا أنا بخيال ينفض الغبار عن رأسه ولحيته . بذيل مئزره أو جبته . فتولاّنى الخوف والوجل . وقلت مَن الرجل . فقال الغلام كاتبٌ من كتبة «السجلات» . ينبش عن اوراق فى سجل «الايلولات» فقلت و كيف يهتدى لذلك . وسط الظلام الحالك . فقال أولئك قوم اعتادوا العمل مع احتجاب الضياء . فصاروا كالخُفّاش يبصرون فى سواد الظلماء :

ولو سار كلُّ الورَى هكذا ... لَمَا حسَدَ العمىُ مَنْ يُبصرون

ثم انعطفنا من ذات اليمين الى شبه قاعة . يلوح فيها من الضوء مثل

جناح يراعة . واذا هو لُعابُ الشمس يسيل من ثُقب . فى سقف ذلك الجب . وهو يموج بأنواع الجراثيم . تموُّجَ الماءِ بالهشيم . فخلتُ ان عجوز الفلك الدوّار . ـ أُريدُ بها شمسَ النهار ـ . خشيتْ أن تضل فى ظلمة هذه المفازة . فاتخذت لها من لُعابها عكازة . تتوكأ عليها للاهتداء . وتدب بها فى هذا العماء . فمسحتُ على بصرى . وأحدقتُ بنظرى . فأبصرت وماذا أبصرت . ونظرت وماذا نظرت :

ما إنْ سمعتُ ولا أُرانِى سامعاً　　أبداً بصحراءٍ عليها بابُ

نعم رأيت فضاءً متسعاً تراكم فيهِ من الاوراق الرثيثة والدفاتر البالية . مثلُ الرُّبى الشاهقة والأَكمات العالية . غير أن هذه تثمر وتُجنى . وتلك تعثّ وتَبلَى . هذه تكون مخضرّة مخصبة . إن جادها الحَيَا أينعتْ بالغضّ من النبات . وتلك سوداء مجدبة . ان بللّتها الرطوبة اهتزت باليابس من الحشرات :

فالأرضُ تبسُطُ فى خدّ الثرى وَرَقاً　　كما تُنشَّرُ فى حافاتِها البُسُطُ
والريحُ تبعث أنفاساً مُعطَّرَةً　　مثلَ العبيرِ بماءِ الوردُ مُختلِطُ
وهذه بسَطتْ فوق الثرى ورقاً　　لـكنهُ للبِلَى والعُثّ منبَسِطُ
وريحُها تورِثُ الأَسقامَ نَاشقَهَا　　كأَنهُ من تراب القبر يستعطُ

وما لبثتُ أن استبان لى شخص الكاتب المرافق لنا . فى لمحة

ذلك السنَا . فاذا هو قصير القامة . كبير العمامة . ذو وجهٍ مقنّعٍ بالاصفرار . وعينٍ مكتحلة بالاحمرار . وقد طوى من خلفه الجبة . ورفعها على ظهره كالجعبة . وفى حزامه دواة من نحاس أصفر . وبين طيّات العمامة أوراق بالتواريخ « والنمر » . فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم . وقلت لذلك الغلام اللئيم :

(عيسى بن هشام) — هلمّ بنا أيها المراوغ الى الباب لنعود الى ضياء الحياة فقد يئست من أمرنا . وأنّى لهذا الكاتب أن يهتدى للبحث فى هذا اللُّج القامس . والليل الدامس

(غلام المحامى) — لا تنكرنّ على مثله الاهتداء فى دياجى الظلماء ولا يهولنك تشتت الدفاتر وتراكم الاوراق فهى مرتبة فى حافظته ترتيباً انطبع فيها من طريق الوراثة عن أبيهِ وعن جده فلا تخفى عليه مواقعها كما يتوارث رؤساء « البوغاز » فى الاسكندرية هدايةَ السفن عند دخولها بما علموه عن آبائهم من مواقع الارض فى قاع البحر . ولو كان معنا اسم الكاتب لسهل البحث ولوصلنا الى الغرض

(الشيخ الكاتب) — نعم لا تنكرْ علينا بارك الله فيك اهتداءَنا للبحث فى هذه الأوراق . والله يعلم ان هذه الدفترخانة مرسومة

فى ذهنى منذ الصغر على أحسن ترتيب وتبويب فهى مقسمة الى عدة سجلات منها «سجل الباب العالى» تسجل فيه الاعيان المباعة غير الموروثة . ومنها «سجل القسمة العسكرية» تسجل فيه الاعيان المباعة الموروثة . ومنها « سجل الايلولات » تسجل فيه الاعيان المحصورة من تركة تخصص أو تباع بالمزاد . ومنها « سجل الاعلامات » تسجل فيه المواد التى تصدر فيها أحكام من المحاكم الشرعية من أى نوع كان . ومنها « سجل التقارير » تسجل فيه تقارير النظار وقفاً وغيره . ومنها « سجل الوقفيات » وتسجل فيه نفس الوقفيات ويدخل فيه التوكيلات والوصايا والتصادق ....

(عيسى بن هشام) — سبحان الفاتح الوهاب . ومن يهدينى الى طريق الباب

(الشيخ الكاتب) — ... ومنها «سجل الديوان العالى» تسجل فيه الفرمانات المتعلقة بتولية القناصل وعزلهم والاعلامات الصادرة من مجلس استئناف مصر فى الهيئة التى يحضرها القاضى الشرعى أو النائب عنه مع جملة من كبار العلماء من المذاهب . ومنها « سجل القسمة العربية » تسجل فيه الأعيان الموروثة المختصة بالذمّيين ...

(عيسى بن هشام) — اللهم ارفع عنا الأذى والمقت . وهلمّ فقد

ضاق بنا الوقت

(الشيخ الكاتب) مسترسلاً — . . . ومنها «سجل اسقاط القرى» يسجل فيه ما يأخذه الامراء ويعطونه من الاطيان والقرى . وليس يخفى انه كان فى مدينة مصر محاكم شرعية سياسية وكانت السيطرة عليها للقاضى من قبل السلطان وكان لكل واحدة سجل تسجل فيه جميع الانواع (وقد حفظت تلك السجلات كلها بهذه الدفترخانة) وكانت مراكزها فى جهات « باب الشعرية » و « قناطر السباع » و « جامع طولون » و « جامع قيسون » . . . .

(عيسى بن هشام) — يكفى أيها الشيخ فقد وجب الرحيل . ولا حاجة بنا الى هذا التطويل والتفصيل

(الشيخ الكاتب) معدّداً — . . . وفى جهات « درب سعادة » و « باب الخرق » و « الصالحية » و « النجمية » و «أحمد الزاهد» و « البرشمية » و « مصر القديمة » و «بولاق » و « جامع الصالح» و « جامع الحاكم» . . . .

(عيسى بن هشام) — تبارك مَن له الاسماء الحسنى . ومن يعيدنى الى الحياة الدنيا

(الشيخ الكاتب) — . . . ثم « محكمة الباب العالى » وهى المحكمة

الكبرى وقاضيها هو المسيطر على الجميع المولّى من القسطنطينية . و« محكمة القسمة العسكرية » وقاضيها يعين كل سنة من دار السعادة كقاضي المحكمة الكبرى ويسمى « القسّام » وشغله المواريث بأنواعها فقط و ....

(عيسى بن هشام للغلام) - لقد ملّ سمعي . وضاق ذرعي . فاخرجْ بنا وأنقذني من شر هذه الدار . ومن ثرثرة هذا الشيخ المهذار

(الغلام) - لا تضجر ولا تقنط وأنظرني قليلاً حتى أستنير برأى الشيخ لعلنا نجد عنده حلاً للعقدة وفرجاً للكربة . (ثم مال على الشيخ منفرداً به فسمعته يقول له) :

(الغلام) - مثلك لا يعجز عن استخراج الوقفية بدون الوقوف على اسم كاتبها وأنت لا تأبى الربح والكسب لنا جميعاً وأصحابُ القضية من كبراء الناس أهلِ السماحة والكرم

(الشيخ الكاتب) - مهلاً فقد كدت أتذكر اسم كاتب الوقفية على ذكر السماحة والبذل فان لكتابتها حكاية مشهورة في الجود والعطاء منذ ذلك العصر ولا يزال للخلَع التي خُلعت على كاتبها بقايا الى اليوم عند أهله وذريته وهو المرحوم الشيخ فلان فدونك وأصحاب القضية فاتفقْ معهم لوضع هذا الاسم في ورقة النمرة والتاريخ

وجئنى بها نافعةً تشفع لنا أجمعين والله ينفعنا بنفع المسلمين

(الغلام لعيسى بن هشام) — قد تيسرت الحال بإذن الله ووصلنا الى معرفة اسم الكاتب الذى تُستخرج به الصورة . والرأى لك فى هذه الخطوة السادسة

قال عيسى بن هشام — ثم انطلق الغلام أمامى يسحبنى وراءه حتى خرجنا بحسن صنع الله من الظلمات الى النور فجهرتْ عينى وسدرت فلم أبصر فى الشمس عند الباب الاّ بعد التردد مراراً بينها وبين الظلام . ولما التقيتُ بالباشا فى الموضع الذى كان ينتظرنى به سألنى عن طول هذا الغياب فلم أرد ان أضيف الى مصائبهِ مصيبة أخرى بوصف ما كنت فيه بل كتمته إياه وأخبرته بتيسير الحاجة . ثم اتفقنا مع الغلام على ان يباشر وضع اسم الكاتب فى الورقة ويعود بها فى اليوم الثانى الى الشيخ الكاتب ليأتينا بصورة الوقفية بعد أن نقدناه ما نقدناه

ثم دارت بعد ذلك علينا الايام ومضت الشهور ونحن نتردد على الدفترخانة تارة فى صحبة الغلام وتارة بدونه الى أن حل الأجل وآن الأوان فجاءنا الغلام ذات يوم يبشرنا بالوقوف على الوقفية ففرحنا فرح الغوّاص بدرّة التاج . تحت تلاطم الامواج . ونهضنا معهُ الى الدفترخانة

فرأينا الشيخ الكاتب عند الباب يتيه إعجاباً بمهارته فى الاهتداء عليها مع قصر الوقت ويحمد الله على حسن الطالع وسعود الجد فحمدناه على همته العالية وصنعهِ الجميل فأخرج من تحت إبطه أوراقاً بالية متخرقة متآكلة لاتستوى منها ورقة مع أختها فيها سطور متقطعة وخطوط متوزعة لايستطيع ان يحلها الاَّ من كان عريقاً فى كشف الرموز وفك الطلاسم . فقلت لهُ ان الاهتداء الى نقل صورة مفهومة من هذه الاوراق لَأعظمُ مشقةً وأدهى بلية من الاهتداء على موضعها من تلك الصحراء المظلمة . فقال لى ان كثرة التعود تيسر العسير وتهوّن الصعب وقد ورثتُ عن المرحوم والدى أيضاً قراءة هذه الخطوط وتلفيق مارثّ من أواخر السطور والعبارةُ واحدةٌ لاتتغير تقريباً فى كل باب من أبواب السجلات . ورأيته يستعد ليسترسل فى أبواب الشرح والوصف وخفتُ ان تشتد به نوبة الهذر والإكثار فودعناه وانصرفنا وكلفنا غلامَ المحامى ان يأتى لنا بالصورة من عنده بعد انتهائها فطلب منا ان ندفع رسمها وان نأتى بشاهدين يشهدانِ علينا باستلامها ووعدَنَا بأنه ينوب عنا فى اجتلابهما بعد ان طالبنا بالمكافأة الواسعة . على هذه الخطوة السابعة

*

* *

قال عيسى بن هشام ـ ولما صارت فى يدنا الصورة . بعد تلك المواقف المذكورة . خطَا غلامُنا الثامنةَ من خطواته . فى بعض روحاتِه الى المحكمة وغَدَواتهِ . فذهب الى كاتب «الطلبات» . لتحديد إحدى الجلسات . ثم عاد فبشرنا بأن الكاتب اتفق مع الرئيس . على ان تكون الجلسة فى يوم الخميس . وأنه حرر «طلباً» لحضور الخصوم . فى الوقت المعلوم . فأقمنا أياماً نعلل النفس بالأمل . حتى حلّ هذا الأجل . وسمح لنا الطالع بطلعة الشيخ المحامى ولقائهِ . بعد طول احتجابه عنا واختفائهِ . ورضى ان يتوجه معنا الى المحكمة . ليكشف عنا بيُمنهِ كل مَظلمة . فسرنا جميعاً نقصد بيت القضاء الشرعىّ . والحكم المرضىّ . والعدل المقضىّ . بوحى الإله وسنة النبىّ . حيث تقام منابر الهدى . وتشاد منائر التقى . وينبلج نور الحقيقة والعدالة . وتنكشف ظلمة البدعة والضلالة . ويؤخذ من الظالم للمظلوم . ويُنتصف من الحاكم للمحكوم . ويُسارُ على الصراط السوىّ . فى الحكم بين الضعيف والقوىّ . ـ حيث تتحد المواقف والاقدام . وتستقيم الاوامر والاحكام . وتغدو فيهِ الثَّكلى ربةُ الأيتام . أعزّ من الفارس رب الرمح والحسام . ويصبح الأعزل الشاكى . أقوى من المدجج الشاكى . ويتساوى لديه رب الشُوَيْهةِ والبعير . برب

التاج والسرير . — نعم حيث يكون المقعد الموروث . عن النبي المبعوث . وحيث يُعمل بالسنّة وآى الكتاب . فينُتصر للذليل على العزيز . ويُقتدَى فيهِ تارة بسيرة عمر بن الخطاب . وأخرى بسيرة عمر بن عبد العزيز . وحيث يكون مقر المهابة والجلال . ومصدر الوقار والكمال . وموضع الطهارة والامانة . ومنبع العفة والصيانة . وقبلة القنوت والخشوع . ومقام الطاعة والخضوع

ولما وصلنا الى هذه المحكمة وجدنا ساحتها مزدحمة بالمركبات . تجرها الجياد الصاهلات . وبجانبها الراقصات من البغال والحمير . عليها سُرُجُ الفضة والحرير . فحسبناها مراكب للعظماء والأمراء . فى بعض مواكب الزينة والبهاء . وسألنا لِمَنْ هذى الركاب . فقيل لنا انها لجماعة الكتّاب . فقلنا سبحان الملك الوهاب . ومن يرزق بغير حساب . ونَحَوْنا نحو الباب . فى تلك الرحاب . فوجدنا عليهِ شيخاً حَنَتْ ظهرَه السنون . فتخطّته رُسُل المنون . قداجتمع عليه العَمَه والصَّمم . ولجَّ به الخَرَفُ والسّقم . وعلمنا أنه حارسُ بيت القضاء . من نوازل القضاء . ثم صعدنا فى السلم فوجدناه مزدحماً بجملة أناس . مختلفي الاشكال والاجناس . يتسابُّون ويتشاتمون . ويتلاكمون ويتلاطمون . ويبرقون ويرعدون . ويتهددون ويتوعدون . وأكثرهم آخذٌ بعضهم

بتلابيب بعض. يتصادمون بالحيطان ويتساقطون على الارض . ومازلنا نزاحم على الصعود فى الدّرَج . والعمائمُ تتساقط فوقنا وتتدحرج . حتى منّ الله علينا بالفرج . ويسّرَ لنا المخرج . فى وسط هذا الجمع المتلاصق . والمأزِق المتضايق . ووصلنا الى القاعة السفلى . فوجدناء دها امرأة حبلى . تتقلب على الارض كالثعبان . وتستشهد بالأهل والجيران . أنّ بعلها . أنكر حملها . وحاولنا ان نخطو خطوة الى الأمام . فلم نستطع من شدة الزحام . وكيف بالتقدم فى عُباب موج ملتطم . ومنحدر سيلٍ مرتطم . من نساءٍ صائحات مولولاتٍ . ونائحات مُعولات . ونادبات باكيات . وصارخات شاكيات . كأنهن قائمات فى مأتم على مدافن الاموات . تقرّحتْ فيهِ العيونُ وبُحّت الاصوات . فيهنّ المُسفرة والمتقنعة . والمضطجعة والمتربعة . والحاسرة عن الذراع والرأس . وأختُها تفلّيها فى وهج الشمس . ومنهن الكاشفة عن ثدييْهاَ . ترضع طفلاً على يديها . وغيرها ترضع طفلين فى حذاء . وزوجُها يضرب رأسها بالحذاء . وأخرى آخذة بضفيرة ضَرّتها . ورضيعهُاَ يتلهف على ضَرّتها . ومن بينهن مَن تتقدمها طليقُهاَ . ويتبعها عشيقُهاَ تشيّع الاولَ باللعن والسباب . وتغمز الثاني بكف مزدانةٍ بالخضاب . ورأينا العقيلة المخدّرة مع «الأغا» . لا يستطيع ان يحميها فى حومة هذا الوغى . وشاهدنا فى

الجمع جماعة من فجار الخلعاء . وتبَّاعِ النساء . يغازلون كل غانية هيفاء . ويغامزون كل غادةٍ غيداء . ويتعرضون لفضّ النزاع . بين ذوات القناع . وفصلِ العناد والشقاق . بين الطاعنات بالاحداق . فتختلط غمزاتُ الطرف . بهمزات الكف . فيزول ماهنالك من الجدال والخصام . ويصيرون جميعاً الى الحسنى والرقيق من الكلام . ورأينا فيما رأينا من غرائب البشاعة . وعجائب الشناعة . رجلا وامرأةً يتسابقان فى ألفاظ الفُحش والهُجر . ويتباذّانِ فى أقوال البذاءة والنكر . وهما يتجاذبان فى أيديهما غلاما . كأنما يحاولانِ له اقتساما . ليأخذ كلٌّ منهما من أعضائه بنصيب . والغلامُ يبكى من شدة الالم والتعذيب . فاستعذنا بالله السميع العليم . من موقف هذا الجحيم . وسمعنا من أفظع ما سمعنا امرأةً تنتحب وتقول . ونقابُها عاء العين مطلول : — لو كان للنساء قضاة من النساء . لما وصلنا الى هذه الحالة التعساء . فان الرجال يميلون لجنس الرجال . وينتصرون لبعضهم على ذوات الحجال » . فاستعنّا برب المثانى . وصعدنا فى السلم الثانى . فاذا هو كالأول يموج بالناس كبيوت النمل . أو خلايا النحل . وانتهينا منه الى قاعة . ممتلئة بصنوف الباعة . هذا يصيح « الخبز والجبُن » . وذاك ينادى « الدخان والبن » . وآخر يقول « الزبدة

والعسل » . وبعضهم يردد « الفولَ والبصل » . وبائع الضأن يفتت بسكينهِ جماجم الرؤوس . والثلّاج يصفق باكواز « العرقسوس » . وهناك قهوة يدب فيها الشهود بالعشرات . كدبيب الحشرات . فيعرضون أنفسهم على الخصوم . للشهادة أو التزكية بأجر معلوم . وغلمانُ المحامين يروحون بين الجموع ويغدون . فيمكرون بهم ويكيدون . ويتقلبون بين الخصوم ويحتالون . فيخدعون ويغتالون .

ودخلنا حجرة صغيرة من حُجُرات الكتَّاب . فثار في وجهنا ما على أطباق الباعة من جيش الذباب . فرجعنا على الأعقاب . ونجونا من الأوصاب . ثم انحدرنا مع غلام المحامى الى حجرة كبيرة الساحة . فقال اجلسوا هنا للاستراحة . فأجلسنا فى صدر المكان . بين الكتبة والغلمان . ولا بد لكل كاتب هناك من غلام . يقوم مقامه فى تنسيق الاحكام . فسمعت الكاتب الجالس عن اليمين . يقسم على أقواله بكل يمين . بأنه لولا اعتراض مركبات الكهرباء وضيق الميدان . لَما تأخر حماره عن حمار فلان . وسمعت صاحبه بجانبه . يحلف بجدّهِ وأعزّ أقاربه . انه لولا حبسه للعنان . لسبق كلِ الحمير فى يوم الرهان . ويقول له وهو يتلفف فى العباء : « قد بلغنا عن الأجداد والآباء . انه اذا صحّت الشعرةُ الخضراء . لم تتعلق

بذيل الحمار الهواء» . ثم التفتُّ ذات الشمال فوجدت كاتباً منهم غض الشباب . عظيم التأنق فى لبس الثياب . فهو يتلألأ ويتألق . فى سندس وإستبرق . كأنما خاطوا له قباءً من أزهار بستان . مختلفة الاشكال والالوان . يفعم الأُنوفَ بعطره . ويعبق الجو بنشره . وأمامه رجل فى يده صرة ثياب ينشرها ويطويها . فيأخذها «السيد» منه ويرميها . ويقول له فى حدّته . وشدة سَوْرته :

(السيد) ـ هذه ثياب لا أرضاها ولا أقبلها . وبئس المفصّل مفصلها

(الخياط) ـ كيف ترى ذلك أيها السيد وأنا أقسم لك بالقرآن المجيد . أنها أوسع من ثياب السيدينِ عبد العزيز وعبد الحميد

(السيد) ـ كذبتَ ورب الكعبة فان استدارة الكم ضيقة والرقبة لا تنطبق على الزىّ الحاضر

(الخياط) ـ وماذا أصنع وذلك كل ما فى عرض الحرير ولو كنا على الزىّ القديم لدخل مع السيد فى طىّ ثيابه . اثنان أو ثلاثة من أصحابه

(أحد أصحاب القضايا) ـ صبّح الله السيد بالخير والإنعام

(أحد الكتبة الظرفاء) منكتاً ـ لا بل بالخيل والأَنعام

(صاحب القضية) ـ أرجو سيدى أن يعطينى الاعلام

(السيد) ـ اذهب حتى يأتى الغلام

(الكاتب الظريف) مورياً ـ عليك بهِ فى شارع أمّ الغلام . تجده جالساً نصاً تحت الاعلام

قال عيسى بن هشام ـ وعافت نفسى هذه النكت الباردة والمعانى الساقطة فأعرضت عن الاصغاء . وسرّحت طرفى فى بقية الانحاء . فرأيت الكتبة كلهم يتفاكهون ويتسامرون . هذا يَلُتُّ فى يده أفيونه . وذاك يكوّر بين أصابعه معجونه . والغلمانُ يشتغلون تارة بأوراقهم . وطوراً يتباحثون فى أذواقهم . وأربابُ الحاجات بين أيديهم يقاسون سوء الرد . ومطل الوعد . وسمعت أحد الكتبة يخاطب صاحب قضية . بألفاظ بذية . ويقول له: كيف تعطى الغلام هذا المبلغ الزهيد . أتظنه كان لك من العبيد . أتريد أن يكتب لك ويتعب . وهو لا أجرة لهُ فى المحكمة ولا مرتب . بغير ربح ولا مكسب . ان هذا لَمِنْ أعجب العجب » . وجاء رسول القاضى يطلب أحد الكتبة الرؤساء . فوجده راقداً كالنُفَسَاء . فبعضهم أشار بتنبيهه من غفلته . وقال بعضهم لا بل اتركوه فى

رقدته . أنسيتم حكم عادته . بأنه لا يفيق من غفوته . قبل ان يسيل الافيون مع الدم فى دورته . ثم اتفق معهم الرسول . على ان يرجع فيقول : انى لم أجد الشيخ مكانه . وعلمت انه نزل الى الدفترخانه » . ثم استيقظ الراقد بعد مدة فتثاءب وتمطَّى . ثم تدثر وتغطَّى . ثم عاد الى ما كان فيهِ من السبات . وهو ينشد للمعرى من أبيات :

وفضيلةُ النومِ الخروجُ بأهلهِ   عن عالَمٍ هو بالأذَى مَجبولُ

ثم جاءهُ بائع كتبٍ وأوراق . فصاح به حتى أفاق . وقام بعون الله وحوله . يخاطب البائع بقوله :

(الكاتب) — هل أحضرتَ ما طلبته من الكتب

(البائع) — نعم جئتك بكتب قديمة . لا تقدّر لها قيمة . منها كتاب « حل الرموز . لفتح الكنوز » . ومنها « أصول المراسم . فى فك الطلاسم » . ومنها « حسن ارشاد الناس . فى استخراج الذهب من النحاس » ومنها « القول المأثور . فى تأثير البخور » ومنها . . . .

(الكاتب) ألم تعثر لى على كتاب فى « الاستحضار »

(البائع) — نعم معى كتابان أحدهما « قلائد اللؤلؤ والمرجان . فى استحضار الجان » . والآخر « خير المواقيت . لرؤية العفاريت »

(الكاتب) - بارك الله فيك وجزاك خيراً فان عندى نسخة محرّفة من هذا الكتاب الاخير فاصحبنى الى البيت لنقابلها ونصححها

قال عيسى بن هشام - وقام هذا الكاتب مع البائع . وأقمت أسخط على هذا الجهل الشائع . والعمل الضائع . وبينا انا كذلك اذْ أشار علينا غلام المحامى بالقيام فقد قرب أوانُ الجلسة لقضيتنا فخرجنا فوقفنا عند باب الحجرة التى تنعقد فيها الجلسة فرأينا الزحام خارجها وداخلها على أشد حالاته وسمعنا الحاجب ينادى تارة بصوت عالٍ وتارة بصوت منخفض فسألت الغلام عن ذلك فقال انهُ يخفض الصوت حتى لا يسمع أرباب الدعاوى النداء فتسقط القضية وهو من باب الشفقة والحنو بالمدعى عليه وفوق ذلك فان للحجّاب ان يُدخلوا الجلسة من أرادوا ويحجبوا عنها من أرادوا . ثم نودى علينا فدخلنا مع شهود المعرفة الذين استحضرهم الغلام لنا فوجدنا الجلسة مؤلفة من ثلاثة أعضاء ورئيسهم وهم جلوس كل واحد منهم بمعزل عن الآخر وقد تعسر علىّ ان أفهم كلام الباشا وهو بجانبى يخاطبنى لشدة الضوضاء وعلو الاصوات . ثم دخل كاتب الجلسة يرقص فى مشيته . وكأنهُ الطاووس فى هيئته . فجلس ووقفت عنده بحيث أبصر ما يسطره فوجدته قد تناول القلم بأطراف بنانه يضعه فى

الدواة تارة ويضعه فى أذنه أخرى ثم يلهو بتفقد ثيابه ويشتغل بلمس الإبر التى تتشبك بها العمامة ثم ابتدأوا فى سماع القضية وتقدم الباشا مع الشهود فلم أسمع شيئاً مما قالوه أو قيل لهم لكثرة الجلبة والصياح وانما رأيت الكاتب يكتب فى دفتر الضبط — وكأنما يكتب من عنده — ما أنقله بحرفه وهو :

«استُحضر أمام الجلسة المدعى والمحامى والشهود فتقدم المدعى وعرّف انه فلان بن فلان بن فلان وسمى شاهدىْ معرفته وهما فلان بن فلان بن فلان وفلان بن فلان بن فلان الساكنان بالجهة الفلانية شياخة فلان بن فلان بن فلان وشهد كل منهما على انفراده بأنه يعرف المدعى المذكور وأشار اليه بيده وهو فلان بن فلان بن فلان المذكور ثم قال المدعى المذكور ان لى قِبَل فلان بن فلان بن فلان دعوى نظر على وقف ومعى مستند دعواى والمدعى عليه لم يحضر مع استلامه علم الطلب المحدد له فيه الحضور فى هذه الجلسة»

ثم أمرت المحكمة بانصرافنا للمداولة والنظر فى المستند فوقفنا ناحية من الحجرة ننتظر مع من ينتظر ثم نودى علينا بعد برهة فقالوا لنا ان المحكمة تعلمنا بمضمون المادة ٧٢ من اللائحة وهى تقضى — على ما اخبرنا به المحامى — بالإعذار الى المدعى عليه وقال لا بد أن

نطلب ذلك من المحكمة لانه لا يسوغ لها ان تُعذر الاَّ بناء على طلب المحامى فقدمنا الطلب . فتقرر إصدار الإعذار . واللهُ يكفيك شر مافى هذه الدار . من الأَقضية والاقدار . وكثرة الهموم والاكدار

*
* *

قال عيسى بن هشام ودخلنا — لا أدخل الله عليك طوارق النقم . ولا أخرجك من طرائق النعم . — فى دَوْر الإنذار يتبعه الإنذار . والإعذار يتلوه الإعذار . ومندوبُ المحكمة يعود الينا بالخيبة . فى كل أوْبة . زاعماً ان خدم الخصم لا يقابلونه الاَّ بالازدراء . كغيرهم من خَوَل أبناء الأمراء . حتى وصلنا الى حد الإعذار الأخير . ورمينا المندوبَ بالإهمال والتقصير . فرأينا ان نَخبر خبره . ونقتفى أثره . ونتحقق بأنفسنا كيف يتسع الذرع . للاستخفاف برسول الشرع . فسرنا وراء المندوب ومعه الشاهدان . يشهدان بأنه أعذر فلاناً بن فلان بن فلان . وقد أمسك الواحد منهم بكتف الآخر . على هيئة تستفز كل هازىءٍ وساخر . وكلٌّ منهم يخدّ الارض بحذائه . ثم يعفى الأثر بفضل ردائه . وهم يتنقلون فى المشى من الذميل الى الرسيم الى الوخيد . كأنهم مسرعون الى جفنة ثريد . ونحن من خلفهم نخبّ ونُهرول . ونُحَسبل ونُحوقل . الى ان كادوا يغيبون

عن البصر . وكدنا نفقد منهم الأثر . لولا أن عثر أحدهم بقضبان الكهرباء . فطاحت العمامةُ وانفلت الحذاء . فانفتل يلتمسها ويلتمسه . فلم يَرُعهُ الاَّ السائق وجرسه . فما تحرك ولا انتقل . حتى أدركته العجل . وكاد يداس ويُقضى عليه . لولا ان جذبه رفيقهُ اليه . فحِيلَ بين الرجل وبين عمامتهِ ونعله . ووقف مخبولاً لا برأسهِ ولا برجله . وهو يستنجد لهما ويستغيث فلا يغاث . حتى مرَّت عليهما المركبات الثلاث . فأدركناه وهو ممتقع اللون من اليأس والوجل . فبشرناهُ بسلامتهما فاغتمّ وانتعل . وحمد الله على هذا اللطف فى القضاء . وحمدناه على ما أتيح من التعويق والإبطاء . اذ تمكنا من اللحاق بهم . وقدرنا على استئناف السير فى عقبهم

وقد انتهى السير بنا الى قصر فى سُرّة بستان . يزرى فى الحسن بقصور بغداد وغُمدان . وقد ترصع البستان بأنواع الازاهر . كأَنه مُحلى بصنوف اليواقيت والجواهر . والقصر فى وسطها كأنه الدرة البيضاء . أوالبدر بين نجوم السماء :

كأنه جيدٌ وبستانهُ ... من حولهِ عقدٌ بديعُ النظامْ

وما عساى أقول فى وصف روض . قد نسجته يد الارض . لتزدان به يوم عيدها ويوم زينتها . ونمنمتهُ رداءً لها تختال بهِ فى

حسن رونقها وبهجتها:

مُوَزَّرة من صنعةِ الوبلِ والندَى بِوَشْيٍ ولا وشيٌ وعَصْبٍ ولا عَصْبُ

قد أغنى الغواني نسيمُهُ العليل . عن المسك الأذفر . وكفاها ريحهُ البليل. تعطُّرَها بالطيب والعنبر:

بغَرسٍ كأبكار الجوارى وتُربةٍ كأن ثراها ماءُ وَردٍ على مسكِ

ومُنَى العرائسِ أن لو اتخذت من نوّار الازهار . فصوصاً للخواتم. ومن اكمام الاشجار . معاقدَ للتمائم . وودُّها ان لو تأزرت من سندس ارضه بأبهى إزارٍ ومِرْط . وتحلَّت من جوهر نباته بأزهى شَنَفٍ وقُرْط :

اذا ما الندَى وافاهُ صبحاً تمايلت أعاليهِ من درٍّ نثيرٍ وجوهرِ

اذا قابَلتهُ الشمسُ رَدَّ ضياءَها عليها صِقالُ الأُقحوانِ المنوّرِ

وقامت فيه مثمراتُ الاغصان قيام الكواعبِ الأَتراب . ساقياتٍ بالأَباريق والأكواب. ساكباتٍ سؤرَ الطل من تلك الاقداح . مائساتٍ من رحيق الندى ومداعبة الرياح:

شقائقُ يحملنَ النّدَى فكأنهُ دموعُ التَّصابى فى خدودِ الخرائدِ

فما تخيلنا فى هذا الروض مذ رأيناه الا اننا في حفلة عُرس. جمعت أسباب اللهو وأطراف الأُنس . قد نصبَ الدَّجنُ عليها سُرادقه.

ومدّ ملتفُّ النبات فيها نمارقه. وأشرقتْ في الاغصان الأَنوار. إشراق المصابيح بالانوار. وقامت الاطيار على الأعواد. تتسابق في الترنم والانشاد. فهي تغرّد بألحانٍ يقطع السامع لها حبلَ النفَس. ويأنس اليها مستنفرُ الوحش المفترس:

رأتْ زَهراً غضاً فهاجتْ بمزهرٍ مثانيهِ أحشاءٌ لطُفْنَ وَأَوْصالُ

وللنسيم بين الشجر نغماتٌ بالهفيف والحفيف. من ثقيل في الضرب أو خفيف. تصفق لها أَكفُّ الاوراق. وتقوم الأفنانُ للرقص على ساق. مترنحة الأَعطاف من خمر الندَى. مهتزة القدود بغمز الصبَا. تبسم عن أقاحٍ نضيد. يزرى بثنايا الغيد. ثم تميل برشيق القوام. فتلتقط ماينقطها به الغمام. والجدولُ يجرى تحت أذيالها ويتعثر. وينساب الماء في ظلالها ويتكسر. كأَن حصباءه اللؤلؤ والمرجان. في نحور الحسان. أو قلائد العقيان. في أجياد القيان:

تروعُ حصاهُ حاليةَ العذارَى فتلْمَس جانبَ العقدِ النّظيم

ولمّا ملئْنا من هذه الجنة طربا. وقضينا عجبا. قلنا ماشاء الله لاقوّة الا بالله. ما أعجز الخلق عن شكر نُعماه. واذا بقوم عند باب القصر. كأنهم أفراخ في مخلب صقر. تعلو وجوههُم قتَرَة. ترهقها غبرَة. وهم بين باكٍ ومنتحِب. وصارخٍ ومصطخب.

فتفرستُ فى هيئاتهم . وهم يذكرون حاجاتهم . فاذاهم جميعاً فى يأس وقنوط . وخيبة وحبوط . واذا الصيرفىُّ يقول . بصوت المقهور المخذول:

(الصيرفى) — تعساً لى لقد ضاع مالى . وذهبت آمالى

(التاجر) — وبؤساً لى لو كنت أعلم بهذا المآل . لم أقع فى تلك الحبال

(البائع) — ياويح نفسى اغتررت بالمقام العالى . فخسرت رزق عيالى

(الجوهرى) — ويلٌ لمن خدعتهُ الظواهر . فضاعت عليه الجواهر

(الصيدلانى) — أقسمت لا يضيع عنده ثمن الدواء . ولو تعلق بأطراف السماء

(الخمّار) — سَقياً له من محتالٍ مالَ على دَنِيّ . ثم اختفى عن عينى

(القصّاب) — انا لا يضيع عنده حقى . ولو وضعوا السكين على حلقى

(الخياط) — وانا لا أترك هذا الباب . حتى أمزق ما عليهِ من الثياب

(الإسكاف) — ورأسِ أبيهِ وجدّهِ . لآخذنّ ثمن الأحذية من جلده

(الحلّاق) — أنا ابن جلا وطلّاعُ الثنايا . وكم لصنعتى من منافع ومزايا . وليتنى كنت شوّهت خلقته . ومسخت سحنته . فنتفتُ شاربه .

وحلقت حاجبه . تالله لآخذنّ بناصيتي هذا الثقيل البارد . ولأسدنّ عليه المصادر والموارد . ولألزمنّه صباح مساء . ولو حلق فى الهواء

كل هذا والخدم يكتمون وجود صاحب الدار . ويقسمون انهُ لم يبق لديه درهمٌ ولا دينار . واذا همّ احدُ الغُرَماء بالدخول منعوه . أو دافعهم احدُهم دفعوه . وبينما نحن نتأمل ونتعجب . ونتقلّى على الجمر ونتقلب . ونقابل بين سعد المكان . ونحس السكان . اذا برجل افرنجى قد خرج من بيت الحَرَم . وهو يلتهب غيظاً ويضطرم . ويقول للبواب برطانته . وسوء عبارته : لقد طالبتهُ فأَبانَ الافلاسَ والعجز . فلم يبقَ الا توقيع الحجز . واليك قائمة البيان . وحذارِ من التلف والنقصان . وما كاد « مُحضر المختلطة » ينتهى ويذهب . حتى حضر « مُحضر الاهلية » يلهث من التعب . فسلّم للبواب ورقة إنذار . فأخذها وهو يدعو بالثبور والدّمار . وبعقبِ ذلك انصرف المحضر . وتبعه جميع مَنْ حضر . لاشتداد حرّ الظهيرة وأُوراها . ولفحِ الشمس للوجوه بنارها . فانتهزنا هذه الفرصة فتحرك مندوبُنا وتقدّم . وخاطب البواب وهو يتلعثم . فقال له أنا مندوب المحكمة الشرعية . فقال له لم يكن ينقصنا الا هذه البلية . ثم دفعه فى صدره . فردّهُ الينا بظهره . بعد أن أخرجنا من الجنان . وأغلق باب البستان . فأخذ

المندوب بيد الشاهدين وهو يتظلم ويتضرر . ووقف بينهما ينادى فى الهواء بالنداء المقرّر :

« يافلان بن فلان بن فلان ان مولانا قاضى مصر يأمرك بأن تحضر الى المحكمة فى يوم الخميس الآتى للنظر فى دعوى اغتصاب الوقف الموجهة عليك من قبل فلان بن فلان بن فلان وان لم تحضر فى اليوم المذكور يَنْصبْ عنك وكيلاً ويسمع الدعوى فى وجههِ ويحكمَ عليك غيابياً »

ثم ودعنا المندوبَ والشاهدين وانصرفوا الى سبيلهم وبقيت أنا والباشا فى دهشة وذهول وحزن وأسف مما رأينا وسمعنا . ثم استند الباشا الى سور البستان وشرع يقول لى وهو فى تأمله وتفكره :

(الباشا) ـ مازالت بواطن الامور وحقائق الاشياء تتجلّى لى على وجهها منذ غمرنى الدهر فى هذه المشكلات والخطوب حتى تحققتُ اليوم بأن أمور هذه الدنيا انما تجرى كلها على التضليل والبهتان وتدور على التمويه والبطلان وتنطوى على الغش والتدليس . فبالله عليك من ذا الذى يرى هذا القصر بزينته وبهجته وخدمه وحشمه ولا يتولاه الحسد لساكنيه والتطلع الى حسن حظهم وسعادة عيشهم ثم يرجع الى نفسه فيسخط على حظه من الدنيا ويندب نصيبه من الحياة وسوء

قسمته فى العالم

(عيسى بن هشام) — لازلت ترى الحق وتقول الصدق بما يتسع لك من سبل الهداية والحكمة . نعم ان جُلّ من نراهم من المنعمين المترفين والأغنياء الموسرين لو كشفت عن باطن امرهم وحقيقة أحوالهم وخبايا معيشتهم من وراء الجدران لوقفت على مايوجب الاسى والاسف ويدعو الى الرحمة والشفقة لا مايدفع الى الحسد والغبطة ولأيقنت ان الرجل الأجير الذى يستخرج قوت يومه منغمساً بعرق جبينه هو أسعد منهم حالاً وأنعم بالاً . والغالب انهُ كلما كان مظهر العيش زاهياً زاهراً كان باطنه مقتماً مظلماً . وأشد مايكون من البلاء على أهل هذه الطبقة انهم يقضون اوقات حياتهم فى الظهور بين الناس على أغرب حالات التصنع فيكون الواحد منهم غريقاً فى بحور الهموم والاكدار وتراه يقسر نفسه بين الملأ على التظاهر بالسرور والانشراح واكثر مايكون فى الضيق والافلاس تراه يتعرض للتبذير والإنفاق فهو على الدوام يتقلب بين الضيقين ضيق العيش وضيق النفس وان كان عظيم الثروة كثير الغنى فانه لا غنى مع ازدياد الحاجات ولا مال يكفى مع تجدد الرغبات

(الباشا) — قد كانت الحال فى أيامنا على العكس . ان كان لا يسرك

من الرجل ظاهر حاله فانه يرضيك باطن أمره وربما كان يجتهد فى التظاهر بلباس الفقر اذا بلغ حد الغنى ويبدى الشكوى اذا أسرّ الرضى

قال عيسى بن هشام ـ وقضينا برهة فى مثل هذا الحديث وأنا متهلل مستبشر بما أراه ينمو ويثمر فى نفس الباشا من التعلق بالابحاث العقلية والتعمق فى معرفة الاخلاق النفسانية حتى صار من ديدنه ان يستنبط من كل حادثة يشاهدها ما يرتقى به الى عالم الفضيلة والحكمة وازددت يقيناً بأن الرجل المرتفع القدر لا يزال غرًّا بالامور غافلاً عن حقائق الأشياء فاذا وقع فى أشراك الخطوب استنارت بصيرته واستضاءت قريحته وعلم بطلان ما كان فيه بحقيقة ما وصل اليه

ثم حانت منا التفاتة الى ماوراء السور فرأينا خدم البيت وحشمه قد اجتمعوا حلقة وهم يتحاورون ويتجادلون فسمعنا البواب يبتدئ فيقول :

(البواب) ـ ليت أمى لم تلدنى وليت أبى لم يعلمنى رسم الخط فقد كلت يدى وحفى قلمى من طول التوقيع بالاستلام على الانذارات والمحاضر فقلما يمضى يوم الا ولى فيه من التوقيعات ما ليس لرئيس قلم فى ديوان . فبئست المعيشة معيشتى وبئس الحظ حظى وليتنى كنت قادراً على الانضمام الى صف هؤلاء المطالبين والغرماء فأخلص بجزء من اجرة

الشهور المتراكمة. ومَنْ لى بالتباعد عن هذا البيت الذى انتشر فيه جراد الحجز وأزعجتْ مَنْ فيهِ أصواتُ الغرماء وأزعجنى ترددُ المحضرين على صندوق ثيابى

(الكاتب) - لست أدرى والله ما يصنع صاحب البيت وماذا يحتال لحالته وكيف لنا بالمعيشة معه ولم يبق عنده كثير ولا قليل . وان صدق ظنى كانت عاقبته من أقبح ما تتصورونه فى سوء العواقب فقد أحسست من كثرة حركته واضطرابه فى هذه الايام انه يدبر لنفسه أسوأ تدبير للخلاص من ضيقه ليختتم امره بأقبح الخواتم . ويعلم الله انه لولا ما ألتقطه فى أشغاله من هنا ومن هناك لما تيسر لى القيام بقوت عيالى بعد أن انقطعت عنا اجور الشهور . وقد دعانى هذا الامير أمس وأعطانى خاتماً من الياقوت لأبيعه فذهبت به الى الجوهرىّ الذى كنا اشتريناه منهُ باكثر من مائة جنيه فلم يدفع لى فيه الا خمسة وعشرين فبعتهُ إياه وعدت للامير بالدراهم فكأنما فككتُ الأسير من القدّ وأنقذت الغريق من اللُّجّ

(الوصيف) - الآن انحلّ ما كان مشكلاً وانكشف لى ما كان غامضاً فانى رأيت معه أمس ذهباً كثيراً لم أهتدِ الى مورده أعطانى منه عشرة جنيهات وأمرنى ان ابتاع من أخيه هذا الكلب الذى

تروته مولعاً بملاعبته منذ الصباح

(الفرّاش) — وأنا اشتريت له من صهره تلك الببغاء بخمسة جنيهات وأخذتُ له غرفة فى «تياترو الاوبره» بثلاثةٍ وزجاجةَ عطر باثنين

(الكاتب) — فعلى هذا لم يبق معه الا خمسة جنيهات ولا بد أن أبادر فى الحال لمطالبته بإنجاز الوعد الذى وعدته لصاحب الجريدة المعلومة حتى يسكت عنه ويكفّ عن التعرض لهُ

(السائق) — وأنا أذهب اليه أيضاً لآخذ منه ثمن الريش والاسفنج الذى وعدنى به ما دام معه من الدراهم بقية

(الخصىّ) — انكم لفى نعمة وغبطة مما تنالونه من وراء هذا البيع وهذا الشراء من الربح ولكن غيركم من الخدم فى الحرم قد اقتنعوا من العيش بيسير الاكل والشرب من غير أجر وصبرنا على هذه الحال وفاءً بالعهد لأهل البيت. ويا ليت هذه النعمة تدوم فقد سمعتم اليوم وعيد البك الجزار كما سمعتم أمس بانذار البك الخباز

(السقاء) — ما أظن ان لنا حيلة نلجأ اليها فى آخر الامر الا ان نطلب منه إحالة ارزاقنا على ريع الوقف الذى سلم وحده من الحجز

(البواب) — لقد خاب ظنك وضاع أملك فان هذا الوقف الذى

كنا نرتكن عليه قد دخل فى دور القضايا والدعاوى وجاء اليوم مندوب المحكمة الشرعية بالإعذار الاخير ومن يعلم ماذا يكون من أمره

وسمعنا الجرس يدق من جانب الحرم فتشتت الجمع نحو المطبخ لحلول وقت الغداء فانصرفنا من موقفنا واكتفينا بما شهدنا

قال عيسى بن هشام — وحلّ اليوم الموعود لجلستنا فى المحكمة الشرعية فتوجهنا اليها ولم يحضر المدعى عليه كعادته ولما فُتحت الجلسة تقدمنا اليها وشهد أمامها شهود المعرفة ثم اطلع الاعضاء على الاعذارات الثلاثة فوجدوها جامعة للشروط المقررة فأمروا بأن ينصب للمدعى عليه وكيل يكون موثوقا بأمانته معروفاً بالمحافظة على حقوق الغائبين فاختاروا من اختاروه وكلفوه شرح دعواه مكان المدعى عليه ثم أخذ محامينا ينظر فى صورة الوقفية التى استخرجناها من الدفترخانة ليعدد الاعيان فلم يجد فيها جميع ما عددناه لهُ بل وجد منها جزءا قليلا لا يقوم بالتعب فى إقامة القضية وخشى ان المحكمة لا تحكم لنا بغير المبيّن فى « الصورة » من العقار فتضيع علينا بقية الحقوق فطلب من الجلسة تأجيل سماع الدعوى زمناً يتمكن فيه من البحث عن بقية تلك الاعيان الموقوفة فوافقه الوكيل المنصوب للغائب فتأجلت القضية

الى ما بعد الفسحة القضائية من العام

وخرجنا ن الجلسة مع المحامى وقد فُتح له ولغلامهِ باب احتيال جديد ولما سألناه عن المظان التى تنبئنا عن بقيـة أعيان الوقف تلكأ فى الجواب ثم أحالنا على الغلام وتركنا معهُ وانصرف . فقال لنا الغلام لا مظنة عندنا غير ديوان الاوقاف لانه يوجد بهذا الديوان سجلات تسجل فيها مثل هذه الاعيان وطلب منا ان نتفق معه على أجر معلوم للسعى وراء هذا الغرض . فوافقنـاه على هـذا المطلب الجديد . والله يفعل بنا ما يريد

*
* *

قال عيسى بن هشام ـ ولما حال أمرُنا من المحكمة الى الاوقاف . وأيقن الباشا بما هنالك من قلة الانصاف . وأنه لا بدّ لنا من أن نطيل الالتماس والرجاء . ونكرر الدعاء والنداء . ونكثر من الغـدوّ والرواح . فى كل مساءٍ وصبـاح . فنُبلى فى هـذا الديوان جدّة الزمن . ونقف عليهِ وقوف العاشق على الدّمَن . لِما هو مستفيض من اختلال أعماله . واعتلال عمّاله . وفساد إدارته . وسوء نظارته . ـ نزل به من الهمّ والغم . ما أورثه الضنى والسقَم . وحلّ به من الحزن والـكمد . ما أخلّ بنظام الجسد . فغدا هزيلاً نحيلا . ووقع مريضاً

عليلا . فأشرتُ عليهِ بالطبيب . قال يخطئ ولا يصيب . وماذا يجدى العلاج وما يفيد . وللآجال توقيتٌ وتحديد . فأقنعتهُ بأن الاعتقاد بتحديد الأجل . لا يمنع من مداواة العلل . وسبحان من أرشدنا الى الدواء . عند حلول الداء . لالتماس الشفاء . فقبل إشارتى بعد طول الإباء . فجئت له بأحد الاطباء . من ذوى الشهرة بالبراعة . فى ممارسة الصناعة . فجلس بجانبهِ يجسّ نبضهُ ويقرع صدره . ثم استلم قلمه وولاّه ظهره . وأخذ يرقم أصناف العلاج . بيدٍ دائمةِ الاختلاج . ثم قال دونكم هذا الدواء . جرعة فى الصباح وأخرى فى المساء . ولا تأخذوه الا من صيدلية فلان فإنهُ صادق مؤتمن . لا يغشُّ فى التركيب ولا يُغلى فى الثمن . ثم وقف عند المرآة يسوّى مفرق شعره . ويصقل ما استطال من ظفره . ويرسل اللحظات تباعاً نحو الباب بنظرٍ مستراب . كأنه يريد ان يستشفّ ما وراء الحجاب . من آنسةٍ فى الخدر أو كعاب . ولما أعوزه ما تفقده . طلب أن يغسل يده . وقال انى أرى حالة المريض شديدة . تقضى بعيادته أياماً عديدة . حتى ينتهى المرض من شدته . ويتلطف من حدته

ومضت مدة والطبيب يذهب ويعود . ودرجةُ الحرارة لا تفتأ فى صعود . والمريض يهذى فى شدة حُمّاه . وأنا اتضرع وأرحماه .

حتى كدت أيأس من الشفاء . وأسلم لحكم القضاء . ولكن زارنى أحد الاصدقاء . ممن يتولعون بالطب والاطباء . فقال لى وهو يبصر حالته : مَنِ الطبيبُ الذى يعالج علته . فقلت هو الشهير فلان . قال علمت السبب الآن وأنا أنصحك أن لا تعتمد فى الطب . الا على أطباء الغرب . أولئك قوم قد برعوا فى معرفة الامراض . وتشخيص الأعراض . وأحاطوا بكل جليل وحقير . من البسائط والعقاقير . فالأدواءُ لا تستعصى فى أيديهم . وليس بين الوطنيين من يماثلهم أو يدانيهم . وأنا آتيك بمن هو فيهم أوسع معرفةً وعلما . وأشهر صيتاً وإسما . وقام فعاد بأجنبي يهدّ الارض بخطواته . ويكثر من اشاراتهِ ولَفتاته . فتقدم نحو المريض فجسّ ولمس . ثم قطّب وعَبَس . ووضع طرف منديلهِ على أنفه . وقال لنا فى صَلَفه وعنفه . ان هواء الغرفة فاسدٌ قتّال . وداء المريض داء عضال . ولا رجاءَ الا باتباع اشارته . فى تواتر زيارته . ثم هزئ بما رآه من دواء الطبيب الأول . بعد أن كتب علاجه بوصفٍ مطوّل . وقال لا يُحسن تركيب هذه الاجزاء . الا صاحب صيدلية الشفاء » . وما زال هذا الطبيب أيضاً يذهب ويحضُر . والعلاج يتجدد ويتكرر . والمريض يُتألم ويتضجر . والمرض ُباقٍ لا يتقدم ولا يتأخر . حتى جاء فى خاطرى أن اجمع منهم جماعة للاستشارة والمداولة . فنخلص من هذه

المراوغة والمطاولة . فلما اجتمعوا وقعوا فى الحجَاج واللجاج . ولم يتوافقوا على تشخيص الداء أو تقرير العلاج . وأقام كل واحد منهم منفرداً برأيه . لا يهتدى الا بهديه . وسمعت بينهم مَنْ يقول لرفيقه . لا ينبغى ان نوافق فلاناً فى تحقيقه . كما لم يوافقنا على رأينا فى الاستشارة الماضية . وأنكر علينا جميع أدويتنا الشافية

ثم خلّفونا ونزلوا على الخلاف . وان كانوا اتفقوا فى تناول الاجرة عند الانصراف . وكنت شاهدت بينهم طبيباً يُظهر نفورَهُ من طريقتهم . ويجرى معهم على غير حالتهم . فأرسلتُ فى أثره مَنْ دعاه . وكاشفتهُ بأننى اخترته على سواه . فقال لى ان علة المريض بسيطة فيما أراه . لا يجب فيها هذا الاختلاف والاشتباه . ولعلّها ناشئة عن انفعالاتٍ نفسانية . من هموم ٍ فجائية . فقلت له نعم أصبتَ فى النظر . ثم اخبرتهُ بجملة الخبر . فقال الآن تبيّن ان معالجة الاطباء . كانت بغير اهتداء . ولا يلزم لعلاجه الا الامتناع عن هذه المركّبات . والاكتفاء ببعض البسائط من النبات . مع جودة الغذاء . وتبديل الهواء . فأيقنّا حينئذٍ بمهارته . وسلّمنا لإِشارته . فلم يمض الا بضعة أيام حتى انتقلنا من دَور السقم والاعتلال . الى دَور النقاهة والإِبلال . وجلس الباشا ذات يوم

الى الطبيب يشكره على حذقه وبراعتـه . ويحاورنا فى الحـديث على حسب عادته :

(الباشا) ـ كيف اهتديتَ أيها الطبيب الى مالم يهتدِ اليه سواك من الاطباء فأدركتَ سبب علتى وأحسنت تشخيص مرضى وأصبت فى اختيار العلاج فـكان الشفاء . لاشك عندى أنك نادرة عصرك ونابغة زمنك

(الطبيب) ـ لافضل لى يستحق كل هـذا المدح والثناء . والسبب فى خطأ الاطباء ان العدد الأعظم منهم يسيرون فى ممارسة صناعتهم على طريقة معينة ودائرة محـدودة قررتهـا العادة فيهم فهم لايتخطونها ولا يتعدونها فترى كل واحد منهم يحصر فى ذهنه عدة امراض معلومة وعللٍ معروفة فيطبّق عليها كل مايراه من الأعراض التى تظهر له فى عامة المرضى — والأعراض تختلف وتشتبه — فيحكم بمعرفة الداء ويأمر بالدواء المعيّن لذلك المرض المعيّن بقطع النظر عن الفحص والتأمـل فى حال المريض أو البحث والتـدقيق فى معرفة الاسباب المادية والادبيـة التى يرجع منشأ المرض اليها ولا يكلف ذهنه التبصر أو التصرف على حال من الاحوال فيعيش فى اسر العادة وقيد الطريقة لايعبأ بالبحث فى اختـلاف الامزجة وتباين الغرائز

وتفاوتِ المعايش وتغايرِ القُوَى فى البُنى فلذلك يكثر منهم الخطأ ويقل الصواب

(عيسى بن هشام) - كأنك تريد أنهم يكونون على مثل حال أهل الصناعات الآلية الذين يحل فيهم مجرى العادة محل إعمال الفكرة فتنطلق ايديهم على وجه واحد وتنصرف افكارهم عن التصرف أو التفنن فى وجوه شتى

(الطبيب) - نعم لقد أصبتَ فى التشبيه. وغير ذلك فانه يوجد بين هؤلاء الاطباء مَنْ لا يرى فى صناعته الا آلة لاجتلاب الرزق واصطياد الربح واستدرار الدرهم والدينار حتى يصلوا الى اكتناز الاموال ويصبحوا فى مصافّ اهل الغنى والثراء لا يبالى احدهم أىّ باب طرق ولا أىّ سبيل قصد للتوصل الى هذا الغرض المطلوب فكل الوسائط لديه مقبولة وكل الطرق عنده مسلوكة فهو يدخل على المريض طامعاً فى ماله لا طامعاً فى شفائه فيحتال لهُ انواع الحيل لتطول مدته فى المرض فيتسع نصيبه فى الاجرة فيعطيه من أصناف الادوية مالا ينفع ولا يضرّ أستغفر الله بل ما يضرّ ولا ينفع ليبقى المريض فى حاجة دائمة الى تجدد العيادة والزيارة وفى كل مرة يصف له نوعاً حديثاً وصنفاً جديداً من المركّبات التى يعظم ثمنها بمقدار

مايقل نفعها وينفسح له بذلك طريق للكسب والربح فوق أجر العيادات يرصده لهُ الصيدلي ّ فى دفتر شركتهما ليقاسمه أرباح تلك الاثمان الفادحة لتلك الادوية المتكررة . فيضرب الطبيبُ فى صناعته بقدحين . ويصيب فى الكسب بسهمين . بعدأن يملأ جوف العليل من كل دواءٍ ضار . ويُخلى كيسه من كل فضة ونُضار

ومن اؤلئك الاطباء مَنْ يجعل همه منصرفاً الى الإبداع والتفنن . فى وجوه التزيي والتزين . ويسلك سبيل التصنع والتكلف . فى أبواب التظرف والتلطف . ثم يتفنن ما استطاع فى حسن المحاضرة . ويتعمد رقة الحديث والمسامرة . ويتقلب فى أساليب المؤانسة والمجاملة . وأفانين المغامزة والمغازلة . ليقيم له بين النساء بضاعة رائجة . وسوقا رائجة . فيحل من اهل الحرم محل الجليس المحبوب . والانيس المطلوب . وينزل من ربات الخدور بمنزلة المُحبّ المكرَم . ويكون بين مقصورات القصور اكرم زائرٍ فى أرحب منزل . والنساءُ لا يعدمنَ العلاّت . على العلاّت . ولا تعوزهنّ العلل . فى اختراع العلل . لاسيما ان كانت دعوى المرض . تدنى من نيل الغرض . فيكون للطبيب بينهنّ زيارات وعيادات . وروحات وغدوات . والطبيب كما يعلم الناسُ مؤتَمنُ الجانب . يؤتمن فوق الاهل والأقارب .

تتفتح أمامه الابواب . ويُكشف مِن دونهِ الحجاب . فترى له زيارة بين كل صباح ومساء . تكتب له بوافر الأجر وسوء الجزاء . بوافر الأجر فى دفتر حسابه . وبسوء الجزاء يوم عرضهِ وحسابه .

ومنهم من يتطلع الى ما فوق ذلك فيطمع فى ثروة البيت باكملها وفى حيازة الاموال بأجمعها فيديم التردد ويوالى العشرة ويحكم الصلة ويلحم الخلطة حتى اذا تأرّبت عقدة الحبل تم الاتفاق بينهُ وبين ربة البيت وصاحبة المتاع على التأهل بها لا التفات هناك الى تفاوت الاقدار ولا عناية بوجوه الكفاءة فتصبح لهُ حليلة . بعد ان كانت خليلة . وينتهى ما كان من أمر الداء والعلاج . بما تمّ من أمر العقد والزواج

(عيسى بن هشام) ـ الآن تبين لى ما كان عليّ غامضا واتضح ما كان مبهماً من أمر الطبيبين اللذين كانا يعالجان الباشا فى كثرة الزيارة وقلة نفع الدواء وشدة التدقيق فى تعيين الصيدلية وطول استراق النظر لما وراء الحجاب

(الطبيب) ـ أجلْ . هذا هو حال بعض الأطباء مع الأعلاَّء وأشباه الأعلاَّء . فاما حالهم مع الاصحاء وذوى السلامة من بعض الخلق فهو أعجب وأغرب . وما يغرب عنك أن كثيراً من المولعين

بسوء التقليد للغربيين والمتهالكين على حب التظاهر بمظهر الرفه والترف يتغالون فى الاحتياط لأبدانهم ويبالغون فى التوقى لاجسامهم فينمو فيهم وسواس المرض والسقم فتراهم يتوجسون من كل أكلة شرا . ويتوقعون من كل شربة ضرا . ويتخيلون ان فى كل لقمة تخمة . وفى كل جرعة غصة . فلا يتناولون قدحاً من الماء . أو يستنشقون نَفَساً من الهواء . الاَّ وفى اعتقادهم انه لا يخلو من كل هامّة سامّة . أو جرثومة ضارّة . ولا يزالون على هذه الحال حتى يمتنعوا عما فيه صلاح أبدانهم من المأكل والمشرب ويُبعدوا ما ما استطاعوا فى طرق الحمية من غير علة ولا داءٍ فيبدلوا الماء الزلال بالماء المعدنىّ ويهجروا الاغذية المناسبة لتركيب الجسم وقوام البدن الى الاطعمة الغريبة عن أذواقهم المنافرة لنسيج أبدانهم فيضطرب نظام التركيب وتضعف البنية ويصبح كل واحد منهم جازماً بأن به داءً دفيناً ومابه من داءٍ وعلةً كامنةً ومابه من علة فيشكو أمره الى الطبيب فيكون الطبيب حينئذٍ أسرع من وهمه وخياله فى اختلاق علة له واختراع مرض دون ان يفحص أمره أو يبلو خبره فينزل به ماينزل من بوائق الخوف والفزع ويوالى عليه الطبيب مايوالى من صنوف الخلاصات المعدنية والجواهر السامة

والمركّبات الحادة فيترصف على مائدته من ألوان العلاج والدواء أضعاف مايترصص عليها من ألوان الطعام والغذا . ويتقيد المسكين بمعيشة لاتناسب غريزة البنية ولافطرة المولد ولاطبيعة الاقليم ولا توافق الاّ مَنْ جمدت عروق آبائه تحت جليد لوندره لامَنْ ذابت مفاصل أجداده تحت هجير القاهرة . فلا يلبث ان يأتى على مابقى فى الجسم من قوة وما فى البدن من صحة ويعيش ان عاش فى يد الطبيب حياً كميت ويكون بين الاموات والاحياء . لاهو من هؤلاء ولا من هؤلاء . الى ان يُلْحَد فى لحده . شهيد طبيبه وقتيل يده . وهنالك يخلق بأهله أن يكتبوا بنجيع الدمع لابسواد المداد . ما كُتب على قبر عظيم من قدماء القواد : « لم تمتنى قوة الاعداء . وانما أهلكتنى قوة الاطباء »

ولقد سرى هذا البلاء فينا مسرى العادة فأصبحنا لانرى فى جمهور مَنْ نراهم من المترفين المقلدين الا شاكياً من ألم أومتألماً من مرض فراجت سوق الطب وعظم عدد الاطباء وغدت حوانيت الصيادلة فى الاسواق اكثر عدداً من حوانيت الخبازين والقصابين . وصار من متاع البيت وجهاز العروس صناديقُ الدواء وآنية العلاج وقلّ ان تجد اليوم بيتاً خالياً من مريض ولامجلساً ليس فيه من سقيم

(عيسى بن هشام) - كأنك تحاول أيها الطبيب الآسى ان تقنعنا بقوة البرهان وجليّ البيان ان لا فائدة من الطب ولا منفعة فى الاطباء

(الطبيب) - حاشا لله أن يشتبه عليه القصد وأن يذهب بقولى خلاف مذهبه وما قصدت بكلامى هذا كله الا أن أظهر عيب بعض الاطباء فى ممارسة صناعتهم دون التعرض لصناعة الطب فى ذاتها. على انه يمكن لى ان أضيف الى ماقلتهُ ماقد قيل من قبل وهو أن العلم علمان علمٌ تستنير به البصائر وتهتدى به العقول فهو جميل الاثر. محمود الورد والصدَر. وعلمٌ تصدأ منه الافهام. وتضل به الاحلام. فهو وبيُّ المرعى. سيي العقبى. وكذلك الطبُّ طبان طبٌ يصحح الاجسام. ويشفى الاسقام. فهو عظيم النفع جليل القدر. وطبٌ يورث الامراض ويولد الادواء فهو شديد الوطء عظيم الضر. ومدار الامر كله على حسن الاهتداء للتمييز بين النافع والضار والتفريق بين الطيب والخبيث. ولا تتوهمنَّ أيضاً اننى أتناول بكلامى جماعة الاطباء قاطبة فان فيهم الصالح كما أن فيهم الطالح ولكننى أعنى من بينهم أولئك الذين يطلبون مجرد الربح من مباشرة الصناعة مع الجهل بها أو يتعمدون الحيل وينصبون الاشراك حتى يعتل جسم الصحيح ويزمن مرض المريض ليكون لهم من وراء ذلك مايسد بعض شرههم فى الغنى واليسار. وما أَولى

سائر الناس بأن يثبتوا بينهم عادة اهل الصين فى معاملة مثل هؤلاء الاطباء . وذلك أنهم يجرون على أطبائهم العطاء ماداموا أصحاء فاذا نزل بأحدهم المرض انقطع العطاء عن الطبيب حتى يعود المريض الى سلامته فيكون من مصلحة الاطباء على الدوام ان تطول مدة السلامة وتقصر مدة العلة على خلاف الحال بيننا

وما ينبغى ان ينصرف شيء مما قلته الى بقية أهل الصناعة من ذوى الحذق والامانة الذين يوفون الصناعة حقها ويؤدون الواجب عليهم فيها حق أدائه والذين يراعون فى ممارستها ما يكون من تفاوت الاحوال فى العلل والامراض وما تقضى به أحكام البلاد والعادات واختلاف الامزجة والطبائع والذين يجعلون لانفسهم من حسن تبصرهم وكثرة تجربتهم عُدةً حاضرة لمقاومة الامراض وصحة تشخيص الأدواء ولطف تناسب العلاج وحسن الارشاد لرفع الوسواس ودفع الخيال وما يجري هذا المجرى من استعمال ما يليق بأهل الاقليم الحار مما لا يليق الاّ بأهل الاقليم البارد واجتناب مالا يوافق أمزجة أهل البلاد الشرقية من المركّبات المجهّزة لطبائع أهل البلاد الغربية . ولقد طالما سمعت عن أشياخى فى الصناعة أنهُ يجب على الطبيب فى مصر ان يختار ما يكون من الادوية وغيرها

ألين قوة حتى لا يكون على طبيعة المصريين فيها كلفة ولا يلحق أبدانهم منها مضرة وأن لا يقدم على الأدوية الموجودة فى كتب أهل الغرب فان أكثرها عملت لأبدان قوية البنية عظيمة الاخلاط على خلاف المعهود فى أهل مصر فيتعين على الطبيب حينئذ أن يتوقف فى إعطاء هذه الأدوية للمرضى ويختار ألينها وينقص من مقدار تركيبها ويبدل كثيراً منها بما يقوم مقامه ويكون ألين منه وأن لا يهمل الاعتماد على الادوية الطبيعية وهى البسائط واللبن والحمية والفصد والاستحمام والرياضة والهواء . وان يكون على الجملة مولعاً بلذة الصناعة فى ذاتها لا يعادلها لديه سواها من سائر اللذات ممتلئ النفس بجلال قدرها وشرف منزلتها من بين الصناعات والفنون فتعظم عنده نفسهُ ويشرف فى عينهِ قدرُه فيترفع عن سفالة الطمع وحطة الشره ويزهد فى نيل الغنى من طريق التحايل على اقتنائه من وراء هذه الصناعة الجليلة . وكيف تزدهيه لذات العالم أجمع من مال وجاه أو زخرف ومتاع فى جانب لذة الاتقان فى الصنعة والاحسان فى العمل . وأية رتبة من مراتب الخلق تماثل رتبة الطبيب العامل وهو القيّم على قوام الأبدان والكفيل بصحة الاجسام والرقيب على اعتدال الامزجة والمشرف على سلامة الجوارح . لا بل أية

صناعة فى الوجود تَفضُل صناعته وهى أمسّ الصناعات بخلقة الصانع الفاطر وتكوين المبدع القادر . واذا كان قد بلغ عُجبُ الصناعة بأحد النحاتين المصورين فى الزمن السابق لَمّا ازدهاه جمال الإتقان والإحكام فى صورة إنسان نَحتَها من المرمر أن استخفّه الطرب واستفزته لذة الصنعة فعُمّيَ عليه فأنحى على التمثال بمنحاته يثيره على نطق اللسان بعد أن أُحكمت فيه خلقة الانسان ويكلف الجماد وقد أُتقنت فيه الصنعة أن يخرج من الجمود الى الحركة حتى أطار عنه بعض أجزائه وبقى التمثال قائماً الى اليوم يفصح بما فيه من التلف عن نهاية الكمال فى جمال الاتقان ومقدار لذة الاحسان فى عمل الانسان - فما بالك بلذة الطبيب ومقدار طربه فى صناعته اذا هو شاهد أجسام الاحياء أمامه وقد استخلصها من شوائب الامراض واستنقذها من آفات العاهات وردّها الى سواء التكوين وأعاد نظام الخلقة الى أصله وانتساق التركيب الى شكله. فهل يجوز فى العقل لمن يدرك كنه هذه الصناعة من الاطباء ان يرغب عن تلك الدرجة الرفيعة الى الدرجة الوضيعة فينزل بصناعته الى مصافّ أهل التجارة والسلع لا يفقه فيها من معنى سوى اصطياد الدرهم ولا يعلم لها من مزية سوى الاحتيال على اكتساب الاموال . لاجرم ان الطبيب

المدرك يفضل لذة صناعته فى ذاتها على كل لذة ويسلو عندها أعظم مزية فى الوجود وأعلى رتبة فى العالم . وفصلُ الخطاب . فى هذا الباب . ان يكون مبلغ همته . ومجمع لذته . أن يرى المريض بعد شفائه . بوجهٍ لامعٍ كالدينار . لا أن يراه فى طول شقائه . بنظر طامعٍ فى درهم أو دينار

قال عيسى بن هشام ـ فأعجبنى من هذا الطبيب صدقه فى مقالته . وحسن نظره فى صناعته . وسألت الله لجماعة الأطباء . ان يهتدوا مثل هذا الاهتداء . ثم انى ودعتهُ بعد أن عيّن لنا البقعة المناسبة لتبديل الهواء . وقرر ما يناسب حال المريض من العلاج والغذاء . الى ان يتدرج من النقاهة الى تمام الشفاء

*
* *

(قال عيسى بن هشام) ـ فطاوعنا القدر . وعزمنا السفر . إلتماساً لبرءِ الداء . بتبديل الهواء . ونزلنا من ضواحى الاسكندرية قصراً ذا روضة غنّاء . فى بقعة فيحاء . لا تسمع فيها الاّ هديل الورقاء . إيقاعاً على هدير الماء فاذا بلّل الموجُ جناح النسيم . فرفرف على ذلك الروض البسيم . نثرَ الماءَ درّاً على تيجان الازاهر . ورقرقه دموعاً فى أحداق العباهر . هناك يتمنى العاشق لو استعار هذى

الدموع لمحاجره . فيستلين بها قلب شاجيه وهاجره . وتودّ الغانية لو نَظمت من ذلك الدرّ عقداً لنحرها . أو نطاقاً لخصرها :

إنّ هـذا المـكانَ شيءٌ عجيب   تَضحك الارضُ من بكاء السماء
ذهبٌ حيث ما ذهبنا ودرٌّ   حيث دُرنا وفضـةٌ في الفضاء

أو قُلْ إنه المجرّة قامت فيه زواهرُ الزّهر . مقام الـكواكبِ الزُّهر . وعناقيدُ الـكروم . مقام ثريا النجوم . وأنوارُ الاثمار . مقام الشموس والاقمار . فأقمنا في ذلك الظل الوريف . مـدة من أيام الخريف . ومكثنا نقتطف القطوف الدانيـة . بين تلك الاعين الجارية . في عيشة راضية . لا يُسمع فيها لاغية . آخذين بسننّ النحيزة . ومجتنّ الغريزة . في ما يوافق صحة البدن من طعام شهيّ . وغذاء مَرِيّ . ورياضةٍ للاعضاء . دون تعب أو شقاء . وتطهيرٍ للنفس من أدران الـكدر . بلطف البحث وحسن النظر . وتجريدٍ للصدر من عوامل الهواجس . وغوائل الوسـاوس . بالتبصر في حقـائق الوجود . والتمعن في صـنعة الخالق المعبود . وأفضتْ بصاحبي طيبُ هـذه الاقامة . الى المقصود من تمام العافية والسلامة . لولا أن راعنا شيطان من الانس بخـبر الطاعون . فقلنا إنا لله وإنا اليه راجعون . وسبحان الله والحمد لله مازلنا نعلل النفس . بزوال النحس والنـكس . ومازالت

تناوبنا النوائبُ والاحزان . وتراوحنا النوازل فى كل منزل ومكان . وانبرى الباشا يسألنى عن هذا الطاعون وأخباره . وما يتوقعه من هول أفعاله وآثاره . فأجبتهُ بأنه لا يلبث أن يصبح أثراً بعد عين . وما أصاب الى اليوم الاّ عدد أصابع اليدين . وقريباً يفرُّ من أمامنا هذا العدوُّ المناجز . ونردّد فى أثره قول الراجز :

قد رَفَعَ اللهُ رماحَ الجنِّ وأذهب التعذيبَ والتجنّى

(الباشا) — كيف تدعى ذلك وتزعمه وما عهدت منك إخفاءً للحقائق ولا تمويهاً للوقائع . وللطاعون في مصر أفاعيل تذوب لها المآقى والاحداق وتتفطر منها القلوب والاكباد وهو عندنا من أمراض مصر الوضعية التى تحدث عند اختلاف الفصول . والمصريون يتوقعونه لكل ربيع حتى أطلقوا عليه كلمة «الفصل» فيقولون جاء «الفصل» عند ظهور الطاعون فترتاع النفوس وتنخلع القلوب وتخور القُوَى وتذهل العقول ثم يصول صولته ويفتك فتكته فلا يقف سيلُهُ عند حاجز ولا يمنع اندفاعَهُ مانع ولا تغيض قرارتُهُ حتى تخرب القصور . ويعمر القبور . فتصبح الاطفالُ يتامى . والنساء أيامى . ويمسى الخلق بين ثاكل ومثكول . وحامل ومحمول . هذا يبكى أباه . وذاك يندب أخاه . وهذه تولول على أهلها . وتلك تنوح على

بعلها . وقد سمعتُ عنه فى زمانى من أحد المعمرين يقول فى وصفه عند وقوعه فى سنة ١٢٠٥ :

«ابتدأ الطاعون فى شهر رجب سنة ١٢٠٥ وداخل الناس منه وهم عظيم واشتد بطشه وقوى بأسه فى رجب وشعبان ومات به مالا يحصى من لاطفال والشبان والجوارى والعبيد والمماليك والاجناد والكُشّاف والامراء ومات من الصناجق أُمراءِ الالوف اثنا عشر صنجقا منهم اسماعيل بك الكبير . وقد أفنى عسكر القليونجية والارنؤوط المقيمين بمصر القديمة وبولاق والجيزة وكانوا لكثرة الموتى يحفرون حفراً بالجيزة بالقرب من مسجد أبى هريرة ويلقونهم فيها . وكان يخرج من بيت الامير فى الجنازة الواحدة الخمسة والستة والعشرة وازدحم الناس على الحوانيت يلتمسون مايجهزون به موتاهم ويطلبون من يحملون النعوش فلا يجدونهم ويقف الناس يتشاحنون ويتضاربون على ذلك . ولم يبق للناس شغل الا الموت واسبابه فلا تجد الا مريضاً أو ميتاً أو عائداً أو معزّياً أو مشيّعاً او راجعاً من صلاة جنازةٍ أو دفنٍ أو مشغولاً بتجهيز ميت أو باكياً على نفسه موهوماً . ولا تنقطع صلاة الجنازة من المساجد والمصليات ولا تقام الصلاة الاّ على أربعة أو خمسة وندرَ من يصاب ولا يموت وقلّ ظهور الطعن على

الجسم فيكون الانسان جالساً فيرتعش من البرد فيتدثر فلا يفيق الا مخلطاً أو يموت في غده ان لم يمت في نهاره . واستمر فتكه الى اوائل رمضان فمات الاغا والوالى في أثناء ذلك فولوا خلافهما فماتا بعد ثلاثة ايام فولوا خلافهما فماتا ايضاً . واتفق ان الميراث انتقل ثلاث مرات في سبعة أيام . وأُغلق بالمفتاح بيت أميرٍ كان فيه مائة وعشرون نفساً فماتوا جميعاً »

(عيسى بن هشام) — انى لأظنك تصف لى موقفا شاهدتَهُ من مواقف الآخرة وأهوال القيامة

(الباشا) —وما كان الامر ليقتصر في الطاعون بعد ذلك على فتكه بل كان يزيد عليه من البلاء ما دسّه الافرنج للولاة من وجوب إزعاج الناس بأمورٍ تشقّ على نفوسهم يزعمون انها تدفع الطاعون فيفصلون بين الناس وبعضهم ويفرقون بين الأب وابنه والأخ وأخيه والمرء وزوجه ثم يهدمون الدور ويحرقون الثياب وينشرون البخور كأنهم لجهلهم يظنون ان هذه الاعمال التى تؤذى النفوس وتعطل مصالح العباد تشتت شمل الجن وتكسر أسنة رماحهم فيزداد الناس ويلاً على ويل وحزناً على حزن وخراباً فوق خراب . وقد شاهدت بعينى ما تشيب له النواصى في سنة ١٢٦٠ وقصّ عليّ

أخى ما رآه منه فى سنة ١٢٢٨ وهو فى خدمة المرحوم محمد على باشا الكبير . قال :

« أمر جنتمكان محمد على بعمل « كورنتيله » بالجيزة فى اليوم العاشر من ربيع الثانى وعزم على الاقامة بها اذ اشتد عليه الوهم من الطاعون لوقوع القليل من الاصابات بمصر ومات به الطبيب الفرنسوى وبعض من نصارى الاروام وهم يعتقدون صحة الكورنتيله وانها تمنع الطاعون . وقاضى الشريعة الذى هو قاضى العسكر يحقق قولهم ويسير على مذهبهم وكان أفندينا لشدة شغفه بالحياة وحرصه على الدنيا يصدق هذا الزعم ويغرسه فى نفوس حاشيته وأهل دائرته واتفق أن مات بالطاعون شخص بالمحكمة من أتباع القاضى فأمر بحرق ثيابه وغسل المكان الذى فيه وتبخيره بالأبخرة المتنوعة وكذلك الأوانى التى كان يمسها وأمروا أصحاب الشرطة انهم يأمرون الناس وأصحاب الأسواق بالكنس والرش والتنظيف ونشر الثياب فى كل وقت . واذا وردت عليهم مكاتبات خرقوها بالسكاكين ودخّنوها بالبخور قبل تسليمها اليهم . ولما عزم الباشا على كورنتيلة الجيزة أمر فى ذلك اليوم ان ينادوا بها على سكانها بأن من كان يملك قوته وقوت عياله ستين يوماً واختار الاقامة فليمكث بالبلدة والا فليخرج

منها ويذهب فيسكن حيث أراد وأعطوا مهلة أربع ساعات فانزعج سكان الجيزة وخرج من خرج وأقام منهم من أقام وكان ذلك فى وقت الحصاد وللناس مزارعُ ومرافق مع مجاوريهم من أهل القرى ولا يخفى احتياج الانسان لبيته وأهلهِ وعياله وأسباب رزقه فيحرمونه من ذلك كلهِ حتى لقد سدّوا خروق السور والابواب ومنعوا مراكب المعادى من السير . وأقام الباشا ببيت الازبكية لا يجتمع بأحدٍ من الناس الا يوم الجمعة ثم قصد الجيزة وقت الفجر من ذلك اليوم وصعد الى قصره وأوقف مركبين الأولى ببر الجيزة والأخرى فى مقابلتها ببر مصر القديمة فاذا أرسل الكتخدا أو المعلم غالى مراسلة ناولها المرسلُ للمقيد بذلك فى طرف مزراقٍ بعد تبخير الورقة بالشيح واللبان والكبريت فيتناولها منه الآخر بمزارقٍ آخر على بعدٍ منهما ويعود راجعاً فاذا قرب من البر تناولها المنتظرُ له أيضاً بمزراق وغمسها فى الخل وبخرها بالبخور المذكور ثم يوصلها الى حضرة المشار اليه بكيفية أخرى وأقام الباشا على ذلك أياماً وسافر الى الفيوم ثم عاد وأرسل مماليكهُ ومَن يخاف عليه من الموت الى أسيوط . »

(عيسى بن هشام) ـ اعلمْ أن ما كان يَعترض عليه عامةُ الناس فى الازمان الغابرة ـ ولا يزال بيننا الى اليوم بقية منهم ـ من الأخذ

بأسباب التوقى والاحتياط لدفع غائلة الطاعون لجهلهم بماهيته وأسباب انتشاره هو الذى يحمينا اليوم من فتكاته وسطواته التى قصصت علىّ طرفا منها وقد كان جمهور الناس فى أزمانكم ينكرون هذه الوقاية ويسخرون منها

(الباشا) - قل لى بالله أية علاقة بين إحراق الثياب وتلك الوخزة التى تأتى بالأجل وأىّ ارتباط بين هذا البخور وحمّى الطاعون اللهم الا ان يراد به تلطيف أمزجة الجن

(عيسى بن هشام) - لا يفوتنّك ان كثيراً من الماهيات والحقائق كانت مكنونة فى خفاء الجهل عند عامة الناس لاختصاص بعض الافراد بالعلم ولبعد تناولهِ على بقية الطبقات فلما انتشر العلمُ وأضاء برهانه كَشف للناس ما كان مكنونا عنهم وأظهر من العلل والاسباب ما كانت تقف دونه الافكار حيْرَى. فان كان الناس فى زمانكم يعتقدون ان الطاعون من وخزات الجن برماحها وأن لا شئ يَقوَى على رد تلك الرماح الخفية عن العيون فان البحث أوصلهم اليوم الى اليقين بان للطاعون جنوداً لا تدركها العيون المجردة وأن لها وخزاً خفيا دونه وخز الرماح وعوَالِى المُرّانِ ولكنهم استعانوا بالعلم فصنعوا آلة تجسّم الاشياء الدقيقة وتعظمها وتبرزها مرئيةً للعين فوقفوا بها

على حقيقة تلك الجنود واستنبطوا طرق الوقاية منها فتدرعوا بها لدفع أذاها ورفع غائلتها

(الباشا) ـ وماذا تجدى الوقاية والحذر من القضاء والقدر

(عيسى بن هشام) ـ حفظتَ شيئاً وغابت عنك أشياء . ان الوقاية من السنة الشريفة وأحكام الدين المبين فقد ظاهر عليه الصلاة والسلام فى الحرب بين درعين . وقال الله تعالى « وأعِدُّوا لهم ما استطعتُمْ مِنْ قوّة » . ولِطُرق الوقاية اليوم أنواع مختلفة لدفع هذا العدو الخفىّ الذى يسمونه « المكروب » وهو دُوَيبة دقيقة من عالم الذر ينطبق عليها أحد أوصاف الجن فى سرعة التولد وكثرة التعدد فى أيسر برهةٍ من الزمن . وهم يتخذون البخور فى الوقاية لينحلّ تركيبه ويحرقون الثياب والأمتعة حتى لا تنتقل بها عَدواهُ

(الباشا) ـ لقد كشفتَ لى معنى دقيقاً فى رماح الجن المسمومة ما كنت إخال أن أحداً يدركه فى عصرنا الماضى وهل لك فى أن تطلعنى على تلك الآلة العجيبة المجسّمة للاشياء الدقيقة لأزداد تبصرةً وهدًى بالنظر فى عجائب المخلوقات

قال عيسى بن هشام ـ فذهبت الى معمل كيماوىّ وأريته نقطة من الماء تحت « المكرسكوب » فلما رآها كأنها غديرٌ ورأى ألوف

الالوف من الهوامّ سابحة فيها سجد سجدة التقديس لقدرة الخالق والتمجيد لعظمة الصانع وتلا قولهُ عزّ من قائل : « وَمَا يَعلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ الاَّ هو » فحمدت الله اذ آمن بالبرهان الساطع ولم يفعل ما فعلهُ ذلك الهنديُّ مع العالم الالمانيّ حيث أراه مثل هذه النقطة وما فيها من الحيوانات ليقنعهُ بأن ماء الشرب مشحون بما يحرّم أهلُ الهند قتلَهُ وأكلَهُ من الحيوانات فسَخِر الهنديُّ منه وكسر النظارة إصراراً على الباطل وعناداً للحق . ولما أيقن الباشا بصدق ما قلتهُ وما راه وأن العلم هزم جنودَ الطاعون وحطّم رماحه ولولاه لمات به اليوم مئات الالوف مكان العشرات سألني يقول :

(الباشا) . ومَنْ هو المخترع لهذه الآلة التي تدل بغير واسطة على عظمة الخالق وقدرة الصانع من مشايخ الموحدين وعلماء الدين . وفي أية بقعة من بقاع المسلمين كان مولده لنردّد الثناء عليه ونذكر اسمَهُ بالحمد

(عيسى بن هشام) ـ أُقسم لك بالله وملائكته وكتبه أن اكثر مشايخنا لا علم لهم بها وأنهم لا يزالون كالعهد بهم في معزل عن هذه العلوم النافعة والمخترعات المفيدة وما نشط لرؤيتها أحدٌ منهم وهم الى اليوم ينفرون من الأخذ بوجوه الوقاية ويفضلون التعرض لنيران

لا يساوى عند صاحبه حبةً من خردل . وأن ما اجتمع فى سرير الملك من العزة والبأس . ليهونُ عند مفقور الظهر أو مصدوع الرأس :

وَمَنْ يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ   يجد مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

وكنت كلما زدته من هذه الموعظة والحكمة . أراه يزيد فى الإعراض عن شكر تلك النعمة . وتحققتُ أن المرء انما يذكر النعيم فى البؤس ولا يذكر البؤس فى النعيم . وينسى المرض فى الصحة ولا يذكر الصحة الا وهو سقيم . وقلَّ من يحمد النعماءَ فى لبسها . ويدرك سعادة الحياة الا فى نحسها . فهذا معنى من معانى الآية الشريفة :

« وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُرُّ دعانا لجنبِهِ أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنهُ ضُرَّهُ مرَّ كأنْ لم يَدْعُنَا الى ضُرٍّ مسَّهُ » . فسألته عما دهاه . وأذهله عن شكر الله . فأجابنى يقول . وهو فى حال الخبل والذهول :

(الباشا) — فِيمَ الهناء بكشف البلاء والضرر . وما انتقلت من خطرٍ الاّ الى خطر :

فإِن أَسلمْ فما أَبقَى ولكن   سلمتُ من الحِمام الى الحِمام

ألم تسمع منى بخبر انتشار الوباء فى مصر بعد أن خلفّنا الطاعون فى الاسكندرية . فما هذه الرزايا المتساقطة وما هذه البلايا المتلاحقة أو كلما انتهينا من بلاء دخلنا فى بلاء وانصرفنا من شقاء الى شقاء

البنادق فى معارضتهم لأوامر الحكومة دون الإذعان لوجوب الاحتياط من هذه الحيوانات الدقيقة ولا يعرفون منها الا ما نَخَر كُتُبَهم من الأَرَضَة وماسَبَح فى حلقات دروسهم من القمل والنمل وما دار فى أمثلتهم من « أكلونى البراغيث »

(الباشا) ــ ومع هــذا كلهِ فلا مُقام لنا اليوم فى هذه البلدة التى أصيبت بالداء وقد وجب علينا الفرار من قدر الله الى قدر الله فَعُدْ بنا الى مصر ان شاء الله امنين

(قال عيسى بن هشام) ــ فأجبته الى سؤْله وقفلنا للرجوع . بعد أن ودعنا محاسن تلك الربوع

*
* *

(قال عيسى بن هشام) ــ وأقمنا فى مصر مدة وقد أَبَلّ الباشا من علتهِ وسقمه . وتمت لهُ العافية والسلامة فى جسمه . فأخذتُ أُهنئهُ ذات يوم بالشفاء والإبلال . من المرض والاعتلال . وأذكر له أن صحة الأبدان . هى مِلاكُ السعادة للانسان . وأنك لو جمعتَ نِعَمَ العالم للمريض . من مالٍ واسع وجاهٍ عريض . لانصرفتْ نفسهُ عنها انصراف الضب عن الماء . والأرمدِ عن الضياء . والممعودِ عن شهىّ الغذاء . وأن خاتم الياقوت فى الإصبع التى أُصيبت بدُمّل .

(عيسى بن هشام) ـ أراك لا تزال كأمثالك من سائر الناس . يغلب عليك الفزعُ والوسواس . وان كنتَ جرَّبتَ فى هذه الحياة شدة الألم . وذقتَ فى القبر راحةَ العدم . وأنّ ما كنت تمناه على دهرك . من الرجوع الى قبرك . عند اشتداد الكروب . من وقع الخطوب . لم يكن لشجاعةٍ فى النفس . تستهين بسكنَى الرمس . بل كان لضعفك عن احتمال الآلام . من نوازل الأيام . وأراك لا تزال مع صحة الدين . وقوة اليقين . ترهب الموت وتخشاه . وتعتورك الأهوال من ذكراه . وهـذا داءٌ فى الناس قديم . عزّ شفاؤه على كل مرشد وحكيم :

وخوفُ الرَّدَى آوَى الى الكهفِ أهلَهُ ۞ وَعَلَّمَ نُوحاً وابنَهُ عَمَلَ السُّفْنِ
وما استعذبَتْهُ رُوحُ موسى وآدمٍ ۞ وقد وُعِدا من بعدهِ جنَّتَيْ عَدْنِ

ولكننى لا أزيدك فى الموعظة ولا أخفف عنك من وَيلات الهواجس والوساوس بأحسن من أن أقرأ عليك مقالة أطلعتُ عليها اليوم فى بيان أحوال الناس وتقسيم طبقاتهم فى أهوال هذا الوباء فإن اردتَ تلوتُها عليك ثم ضعْ نفسك بعدها حيث شئت

(الباشا) ـ هات أسمعنى لا زلتَ للحق راويا . وللهدى داعيا

(عيسى بن هشام) قارئاً ـ « انما النوازل العظيمة والخطوب

الجسيمة محك الطباع ومسبار الاخلاق فهى لشدتها وهولها تكشف من الناس ما يخفونه عن الناس وتهتك سجوف التمويه والتزويق عن حقائق الصفات فلا تمالك النفوس ان تبقى على التظاهر بما ليس فيها ولا التطاول بما هو مفقود لديها بل تتجلى للناظر بما اشتملت عليه ضمائرها واحتوته سرائرها من قوة أو ضعف ومن فضيلة أو نقيصة ومن علم أو جهل . وهنا يتمكن الباحث فى الاخلاق من النظر فيها نظرة التثبت والتحقق وهى مجردة أمامه من كل غشاء عارية من كل غطاء

« وليس فى باب النوازل والخطوب ما يهول النفوس ويروع القلوب أعظم ولا أكبر من مصيبة الموت وبلاء هذا الوباء . فلذلك لا نرى بأساً من الكلام بشىء عما يجده المستقرئ لأحوال الناس من طبقات المصريين وهم بين أيدى هذه النازلة العظمى والمحنة الكبرى

« فطبقة العامة أناس جبلوا فى مثل هذه النوازل العامة على التسليم لاحكام القضاء وتفويض الامر لأقدار السماء وهم لا يعلمون من أمر الوباء ما جراثيم الداء ولا علة المرض والشفاء ولا سبب الهلاك والنجاء وليس فى قدرة قادر من البشر أن يزحزحهم عن اعتقادهم أو يحولهم عن يقينهم ولا فى استطاعة أحد من أبلغ الوعاظ وأفصح

الخطباء ان يضع فى رؤوسهم أن الوقاية تمنع من المقدور وأن الحذر يُنجى من المكتوب وأن طب الاطباء يؤجل فى الأَجل المحدود وأن صنوف الدواء تنفع فى رد القضاء المحتوم . وهم يرون كل ما يؤمرون به من وسائل الوقاية وأسباب الحيطة أموراً تضر ولا تنفع فلا تزيد فى عمرهم ساعة ولا تكفّ عنهم غَرب المنون ولا تقبض دونهم يد قابض الأرواح . فهم بمعزل عن الخوف والهلع وفى أمانٍ من الذُّعر والفزع وفى ضمانٍ من الوساوس والهواجس وإن كانوا مقيمين فى غفلة عما يجب عليهم لانفسهم من المحافظة على صحة الابدان وتعهدِ الاجسام بما يدرأ عنها الاستعدادَ لقبول الداء والوقوعَ فى مخالب الوباء لبعدهم عن فهم قوله عليه الصلاة والسلام « إعقلها وتوكلْ » لكنهم لا يزالون على كل حال فى صحة من الارواح وإن أعوزتهم صحة الابدان

« وطبقة الخاصة ونعنى بهم أهل الدين واليقين وهم الذين يعتمدون أيضا على التسليم لاحكام القضاء وحسن الاعتقاد بتحديد الآجال والإيمان بأنه لن ينالهم الا ما قدّره الله لهم ولا تفتأ تجرى ألسنتهم فى مثل هذه الأهوال بتلاوة الآيات البينات من كتاب الله : « ولكل أجلٍ كتاب » : « فاذا جاء أجلُهم لا يَستأخرون ساعةً

ولا يستقدمون» : «أينما تكونوا يدرككُم الموتُ ولو كنتم فى بُرُوجٍ مشيَّدَة» : «قُلْ إنَّ الموتَ الذى تَفِرُّون منه فانه مُلاقيكُم». تعالى الله أحكم القائلين . وهم الذين يعلمون علم اليقين أن الموت أمرٌ واقع لامردَّ منه وأن الانسان عرضة له فى كل وقت ولحظة وأن طعمه واحد سواء كان بمرض الوباء أو صواعق السماء أو زلازل الارض أو كان بغصة شرابٍ أو عثرة قدم أو لسعة حشرة وأن نَفَسَ المرء خُطاهُ الى أجله فعليه أن ينتظر ساعته فى كل حركة وسكون وعند كل قيام وقعود :

وما نفسٌ الاّ يباعدُ مولداً ويُدنى المنايا للنفوس فتقربُ

وهم يعتقدون حق الاعتقاد أن الحى حيّ للفناء وانه مقيم من دنياه أبداً فى أرض وباء وإن لم يكن ثم وباء :

ما خصَّ مصراً وبأٌ وحدَها بل كائنٌ فى كلِّ مصرٍ وبأْ

وأنّ مَنْ فرّ من المقدور فعلى المقدور نزل . ومَنْ هرب من القضاء فإلى القضاء رحل :

مهلاً أَمِنْ وبأ فررتَ وهل تَرَى فى الدهرِ الاَّ منزلاً مَوْبوأَ

وأنَّ مَن حانت منيته . لم تنفعه تقيته . ومن حلّ أجلُه . لم يحمِهِ وَجلُه :

ومَن هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ولو رامَ أسبابَ السماءِ بِسلَّمِ

الا انهم مع ذلك كلهِ لا يرون من مانع يمنعهم عن الاخذ بأسباب التقية والحذر ولا فى العمل بمقتضى القوانين المندوب اليها فى حفظ صحة الابدان وما يقرره اهلُ صناعة الطب من سبل التوقى والتحرس اتقاءً لِمَا نُهوا عنه من الإِلقاء بالأيدى الى التهلكة واحتذاءً لما ترسمه ظروف الاحوال وتقضى به احكام الازمان ولا يجدون الطاعة لاشارة الاطباء فى مثل هذه النوازل مما يخالف لهم سنة أو يناقض لديهم شرعاً وإن لم يكن من ورائها فائدة فليس فى عقباها مضرة. فتراهم لذلك فى أجلّ مقام من شجاعة القلب وقوة النفس وثبات الجنان بفضل الدين واليقين وعلى أحسن حال من سلامة الجسم وطهارة البدن بفضل العلم وحسن القيام بما يرشد اليه من وسائط الوقاية لا سلطة للوساوس والهواجس عليهم ولا محل للرعب والرهب فيهم آمنين مطمئنين يتمتع كل واحد منهم بالروح السليمة فى الجسم السليم

« وهناك طبقة ثالثة حديثة النشأة حديثة التربية لا من هؤلاء ولا من هؤلاء لم يرسخ الإِيمان في قلوبهم ولم تتمكن التربية الدينية من نفوسهم ولم يتأدبوا بأدب الدين ولم يرتاحوا لحسن اليقين بل اقتصرت

بضاعتهم على ماتلقوه فى المدارس من العلوم الآلية والفنون الصناعية دون علوم التربية النفسانية والفضائل الروحانية وخلت صدورهم من آيات الله والحكمة قد أخذوا عن الغربيين عادة التهاون بالشرائع والازدراء بالإيمان ولم يحيطوا بشيء من العلوم الموضوعة لتقويم النفوس وتطهير الطباع وتقرير الحقائق وترويض القلوب على التجلد والثبات عند وقوع المكروه ونزول الملمات فتجدهم قد ظهروا للناس فى هذه النازلة الوبائية وانكشفوا لاهل البحث والنظر أصغرَ خلق الله نفوساً وأجبنهم قلوباً وأكثرهم هوساً ووسواساً وأشدهم قلقاً واضطراباً وأعظمهم خوفاً ورعباً واكبرهم بلاءً وكرباً يتمثل لهم الموت فى أعينهم على أفظع الصور وأشنع المناظر فيحاولون الفرار منه وهو ممسك بنواصيهم ويهابون دنوّه وهو آخذ بتلابيبهم. حلّ الخوفُ مفاصلهم واستلّ الرعبُ نخاعهم فهم يرون فى كل عُودٍ نعشاً لهم ويحسبون كل صيحة عليهم أولئك لا إيمان لهم يثبّت أقدامهم ولا علم لديهم يرجّح أحلامهم بل هم على مثل حال المغشيّ عليه من الموت أو الممسوس من الشيطان يتوهمون طعم الموت ومذاقَ الوباء فى تنفس الهواء وتناول الغذاء وشرب الماء وملامسة الأيدى ومخاطبة الناس فاذا رأى المسكينُ منهم تلك الآلة الحدباء تحمل أحَد المصابين

بالوباء جمدَ دمهُ وسال عَرَقه وخمدت أنفاسه والتوَتْ اعصابهُ وأمسك مَنْ بجانبهِ يستنجد به ويستغيث ليحميه من شر العدوى ويدفع عنه نزول البلوى . وما أشبههم فى حالهم هذه من الخور والهلع والفزع والجزع الاّ بمثل أناسٍ قُضى عليهم بالاعدام لِوَقتهم فهم وقوفٌ بين يدى الجلاد والسيّاف اذا قُدّم احدهم للسيف والنطع مات الذى يليهِ من الخوف قبل القتل . ومنهم من اعتكف على الخمر يشربها ليلهُ ونهاره عساها تجهّله كيف اطمأنت به الحال ومنهم من يبالغ ويغالى فى تناول العقاقير السامة والجواهر القتالة مما وضعه الاطباء لقتل الجراثيم فهو يشربها ويستَعِطُها ويدهن بها جسده ويغمس فيها ثيابه ويبلل بها فراشه ويغسل بها آنية طعامه وشرابه وكلما سمع بزيادة العدد فى المصابين زاد فى مقدار ما يستعمله منها يوماً بعد يوم حتى أصبحت اجسامُهم مسمومةً وأبدانُهم مهزولة وشفاههم متقلصة وعيونهم غائرة ووجوههم مغبرّة وأناملهم مصفرّة ينطبق عليهم قولهُ جلّ وعلا : « ويأتيهِ الموتُ من كلّ مكانٍ وما هوَ بميّت » اذا رأيتهم حسبتهم فى حال المصابين بالفعل لولا أن هؤلاء يفضلونهم بالخلاص من ألم الداء براحة العدم والفناء . ولمّا كان الخوف والوسواس من أكبر وجوه العذاب فى الحياة ومن أعظم الاسباب

فى رأى الاطباء لجلب الداء كانوا هم أعداء أنفسهم بأنفسهم وأصحاب الارواح السقيمة فى الاجسام السقيمة لهم النكد فى هذه الدنيا ولهم الخزى فى الآخرة »

– فأين تَضع نفسَك الشريفة أيها الباشا من هذه الطبقات

(الباشا) – ما أرى لى موضعاً بعد إذ عاشرتنى وأرشدتَني الا فى طبقة أهل الخاصة الذين يسلّمون للقضاء والقدر ويعملون بالحيطة والحذر لكننى مع ذلك أفضّل الابتعاد عن ضوضاء الناس فى هذا الوباء وأرغب فى التخلص من النظر اليهم وهم فى مثل أهوال القيامة من الفزع والهلع وليس من الصواب ان نجمع بين أكدارنا وهمومنا وبين التأثر لأكدار الناس وهمومهم

قال عيسى بن هشام – وخشيتُ على الباشا إن أنا تركته فى هذه الحال غريقَ أفكاره . وأسيرَ همومهِ وأكداره . ان تنتوبَهُ الانتكاس . ويعتريَهُ الارتكاس . والنكسةُ بعد البلّة . شرّ ادوار العلة . فبادرتُ الى طاعته . وامتثال اشارته . فاخترتَ له من ضواحى المدينة مكاناً قصياً . ومسكناً مَرْضياً

*
* *

قال عيسى بن هشام – واعتزلتُ بالباشا مدة من الدهر . نستملح

العزلة ونستعذب عليها الصبر . ونعيش فيها عيش الحكماء . من حسن الرضاء بحسن الاكتفاء . ونستروح راحة البعد عن هذا العالم وأذاه . وإغماضِ الجفون على قذاه . مؤتنسين كل الائتناس. بالوحشة من الناس . بعد الذى شهدْنا من اعمالهم ورأينا . وسمعنا من اقوالهم ووَعينا . وقاسينا من عشرتهم ما قاسينا :

عَوَى الذئبُ فاستأنستُ للذئب إذ عَوَى
وصَوَّتَ إنسانٌ فكدتُ اطيرُ

إن سالمتَهُم حاربوك . وان وادعتهم ناصبوك . وان صادقتهم عادوك . وان واثقتهم كادوك . واذا خالطتهم لا تأمن الاعتداء . واذا مازجتهم لا تعدم الافتراء . واذا طالبتهم بحقّ فانك لا تُسمع الصُمَّ الدعاء :

فلو خبّرتَهُمْ الجوزاء خبْرى   لَمَا طلعتْ مخافة ان تُكادا

ولو أنك لم تخالطهم الا فى مجالس أنسهم وصفوهم . ومعاهد لعبهم ولهوهم . لم تجنِ منها الا كلّ ما يُبعد وينفّر . وينغص ويكدّر . تدخلها اذا دخلتها مستروِحاً مستبشرا . وتخرج عنها مستقبحاً مستنكرا . فعيشتهم فى كلتا الحالتين قرارةُ معائب . ومجتمع نقائص ومثالب . ومنابت اكدار . وينابيع اضرار . ولا راحة فى الدنيا الا لمن تنسّك وتزهّد . ولا سلامة من الخلق الا لمن اعتزل وتوحّد .

وأبعدُ الناسِ عن معاشرة البرايا . أقربهم الى كرم السجايا :

بُعدِي عن الناس برءٌ من سقامهمُ وقربُهم للحِجى والدّين أدواء

كالبيتِ أُفردَ لا إيطاءَ يدركهُ ولا سِنادَ ولا فى اللفظِ إقواء

وعكفتُ مع الباشا فى عزلتنا أذهب به كل مذهب . وأنتقل به من مطلب الى مطلب . فى مطالعة الاسفار والكتب . من تاريخ وأدب . ومن حكمٍ متينه قويمة . وشتى علوم حديثةٍ وقديمة . أُهديه من كل طرف بطُرفة . وأتحفه من كل باب بتحفة . وأجتنب معه ما يدعو الى الضجر والملل . ويدنى من الكد والكلل . فتارةً أخوض معه عُباب البحار . وطوراً أجتاز به سراب القفار . فنرى مَن يحرق فى البحر مراكبه . ليحمل على اقتحام المنايا كتائبه . ونسمع الشاعر فى القفر يحدو بناقته.. ويشبّب بمعشوقته . ثم لا يقعد به ذل الغرام . عن التفاخر بعز الكرام . ولا ينسيه ذكرُ الهوى . مواقف الحتفِ والردى . فيخلط بالغزل الفخر . ويخاطب خلّتهُ من جوف القفر :

إنّا مُحيّوكِ يا سَلْمَى فحَيِّينَا وإنْ سقيتِ كرامَ النّاسِ فاسقينَا.

وإن دعوتِ الى جُلّى ومكرمةٍ يوماً سَراةَ كرام الناسِ فادعينا

إن تبتدِرْ غايةٌ يوماً لمكرُمةٍ تلقَ السوابقَ منـا والمُصلّينا

وليس يَهلك منا سيدٌ أبداً الاّ افتلَينا غلاماً سيّداً فينا

إنا لنُرخص يومَ الروعِ أنفسَنَا ولو نُسامُ بها فى الأمن أُغلينا
بيضٌ مفارقُنا تغلى مراجلُنا نأسُوا بأموالنا آثارَ أيدينا
إنى لَمِنْ معشرٍ أفنَى أوائلَهُم قيلُ الكُماة ألا أينَ المحامونا
اذا الكُماةُ تَنحوْا أن يصيبَهُمُ حدُّ الظُباةِ وصلناها بأيدينا

ونرى الناقة تطرب تحته الى مواطنها . وتشتاق الى معاطنها . فتحنّ حنينه . وتئنّ أنينه . وكلما رآها تشكو مثل شكواه . وتصغى بأذنها الى نجواه . وتردّد برُغائها صَداه . وتسعده بترجيعها فى هواه . تأوّه وتنهد . وترنم فأنشد :

لقد زارنى طيفُ الخيالِ فهاجنى فهل زار هذى الإبلَ طيفُ خيالِ
لعل كَرَاها قد أراها جِذابَها ذوائبَ طَلْحٍ بالعقيق وضَالِ
ومَسْرَحَها فى ظلّ أحوَى كأنَّها اذا أظهرتْ فيه ذواتُ حجالِ
تَلَوْنَ زَبُوراً فى الحنينِ مُنَزَّلاً عليهن فيه الصبرُ غيرُ حلالِ
وأنشدْنَ من شعر المطايا قصيدةً وأوْدَعنَهَا فى الشوق كلَّ مقالِ

ثم ننتقل الى مشاهدة الملاحم المشهورة . والوقائع المذكورة . فنرى الدماء تجرى أنهاراً فى الوديان . والمُهَج تسيل انحداراً من من مسايل الأبدان . والموت واقفاً يحصد الرؤوس . ويجنى نفائس النفوس . والفارسَ يمشى فى الصفوف مِشيةَ الخُيَلاء . ويطعن

برمحه كل طعنة نجلاء . ثم ينشد فى وصف أثرها . وبُعدِ غورها :

طعنتُ ابنَ عبدِ القيس طعنة ثائرٍ ... لها نفذٌ لولا الشعاعُ أضاءَها
ملكتُ بها كفّى فأنهرتُ فتقها ... يرَى قائمٌ مِن دونها ماوراءَها
يهون علىّ أن تردّ جراحَها ... عيونَ الأواسِى اذحمدتُ بلاءَها

أو يقول فيها :

أضربُ الضربةَ الفريغَ كفى البا ... زلِ أحيا لهُ المُرارُ مَرِيرا
برسُوبٍ يهوِى الى ثَبْرة الما ... ء ولو أنه أصاب ثبيرا
هدرُها يسكتَ البليغَ ولو زا ... د على المُصعَبِ الأغرّ هديرا
كالقليب النّزوعِ فى القلب لاتُنْ ... بطُ الاّ الدمَ الغريضَ الزّبيرا
أسهرتهُ وأهلهُ وهى كالمغ ... مورِ نوماً تحسّ منها شخيرا

أو يقول فى وصفها أيضاً :

غارتْ وفارتْ وألقى منْ يمارسُها ... فيها العمائمَ أبدالاً من القُلُلِ

وتذكو شعلة الحرب فلا تنطفىءُ نارُها . ولا تخمد أُوارها . الاّ وقد غادرت النساءَ أيامى . والاطفالَ يتامى . والاموال نهباً منهوبا . والأعلاقَ سلَباً مسلوبا . والمَدائنَ خالية خاوية . والقصورَ بائدة بالية . والحربُ ينخذل فيها القوىُّ لأوهَى سبب . وينتصر الضعيف من حيث لايحتسب . فكم دالت بها الدول ودارت الدوائر

وانثلّت العروش وسقطت الممالك بعد لواء العز المعقود . وبساطِ المجد الممدود . وذلك التناهى فى العَظَمُوت . والتمادى فى الجبرُوت . وبعد أن لم يكن يدور فى الوهم سقوطُها . ويخطر فى الخيال هبوطُها . كل ذلك يكون أسرع من لمح البصر . اذا نزل القضاء وحُمَّ القدر . وكل مُلكٍ مهما امتد ظلهُ زائل . وعند التناهى يقصر المتطاول .

ثم أدخلُ به فى مطالعتنا الى حلقة حكيمٍ واعظٍ يسلب الالباب بقوة بيانه . ويخلب العقول بضوء برهانه . ويسترق النفوس بطلاقة لسانه . ويقول فى حقارة الغنى وهَوَانِه :

« ايها الناس واللهِ لَدُنيا كم هذه أهوَنُ عندى من عُراقِ كلبٍ فى يد مجذوم »

« والمخيَّرُ بين أن يستغنى عن الدنيا وبين أن يستغنى بالدنيا كالمخيَّر بين أن يكون مالكاً او مملوكا :

من سَرَّه أن لا يَرى ما يسوءه فلا يتخذْ شيئاً يخاف له فقدا

« والحياة الطيبة هى حياة الغنى والغنى هو القنوع لانهُ اذا كان الغنى عدم الحاجة الى الناس فأغنى الناسِ أقلّهم حاجةً الى الناس ولذلك كان الله تعالى أغنى الاغنياء :

غَنى النفسِ ما يكفيك من سَدِّ خَلّةٍ فإنْ زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا

ويقول فى محاسن الاخلاق : « الجودُ حارس الاعراض والحلمُ فِدَامُ السفيه والعفوُ زكاة الظفر والاستشارة عين الهداية وأشرفُ الغنى تركُ المُنى وكم من عقلٍ أسير عند هوىً أمير ومن التوفيق حفظ التجربة ومَنْ لاَنَ عودُهُ كثفت أغصانهُ ومن لانتْ كلمتهُ وجبت محبته »

ويقول فى مساوىء الصفات: « الكاذبُ فى نهاية البعد من الفضل والمُرائى أسوأ حالاً من الكاذب لانهُ يكذب فعلا وذلك يكذب قولاً والفعل آكدُ من القول . فأما المعجب بنفسهِ فأسوأ حالاً منهما لانهما يَريانِ نقص أنفسهما ويريدان إخفاءهُ والمعجب بنفسه قد عمى عن عيوب نفسه فيراها محاسنَ ويبديها . وانى لأعجب للبخيل يستعجل الفقر الذى منه هرب . ويفوته الذى إياه طلب . فيعيش فى الدنيا عيش الفقراء . ويحاسب فى الآخرة حساب الاغنياء . وأعجبُ للمتكبر الذى كان بالأمس نطفة وفى الغد جيفة . وأعجب لمن يغفل صبرَهُ ويشكو الى الناس دهره فان كان عدوًّا سرَّه وان كان صديقاً أساءه وليس مسرَّة العدو ولا مساءة الصديق بمحمودة:

ولا تَشْكُ الى خَلْقٍ فتُشْمِتَهُ   شكوَى الجريح الى العقبانِ والرَّخَمِ

« والعجز عجزانِ أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر والثانى

الجدّ فى طلبه وقد فات

ويقول فى ذكر الحياة والموت : « انما المرء فى الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ونهبٌ تبادره المصائب ومع كل جرعة شرقٌ وفى كل أكلة غَصص ولا ينال العبدُ نعمةً الاّ بفراق أخرى ولا يستقبل يوماً من عمره الاّ بفراق آخر من أجلِه فنحن أعوان المنون وأنفسُنا نصب الحُتوف فمِنْ أين نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفاً الا أسرعا الكرة فى هدم مابَنَيا وتفريق ماجمعا وعجبت لمن نسى الموت وهو يرى مَن يموت »

ويقول فى وصف العلماء . « الخيّر من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذى هو بالرحمة أحقّ منه بالغلظة ويَعذِرهُ بنقصه فى ما فرط منه ولا يعذر نفسه فى التأخر عن هدايته

ثم يختم وعظه بقوله :

الدِينُ إنصافُك الاقوامَ كلَّهمُ — وأىُّ دِينٍ لآبِى الحقّ إن وَجبَا
والمرءُ يُعييهِ قوْدُ النفسِ مُصحبةً — للخيرِ وهو يقودُ العسكرَ اللَّجِبا

اللهم اكفنى بوائقَ الثقَات ومكائد الاصدقاء »

ثم انتهى بصاحبى الى مجلس محاضراتٍ بين الادباء . ومفاكهات بين الندماء . فنقرأ من لطيف بوادرِهم . ورقيقِ نوادرهم . ماينير

ظلمة الفهوم . ويجلو صدأ الهموم :

لفظ كأنّ معانى السكر تسكنهُ ، فمن تحفّظَ شيئاً منهُ لم يُفقِ
جزلٌ يشجّع مَنْ وافى لهُ أُذُناً فهو الدواء لداء الجبنِ والقلقِ
اذا ترنّم شادٍ للجبانِ به لاقَى المنايا بلا خوفٍ ولا فرَقِ
وإنْ تمثّلَ صادٍ للصخور به جادت عليه بعذبٍ غير ذى رَنَقِ

وهكذا قضيتُ مع الباشا زمناً ليس بقصير أستخرج له نفائسَ الأعلاق . من بطون الاوراق . وأقتطف معه زهر الأدب العاطر . من حدائق الكتب والدفاتر . الى ان قال لى ذات يوم . بين ندمٍ ولوم :

(الباشا) — إن أعظم ما آسف عليه اليوم تلك الايام التى أضعتُها من سالف عمرى فى مالا يجدى ولا يفيد من مشاغل الدهر وملاهى العيش ويا ليتنى كنت قصَرت همى منذ صباى على مثل هذه المعيشة مع هذا التفرغ لاجتناء فوائد العلوم واقتناء فرائد الآداب مغتبطاً سعيداً لا حاسداً ولا محسوداً أتنقل من مطالعة الكتب الى مذاكرة العلماء ومِن مذاكرة العلماء الى مسامرة الفضلاء ومن مسامرة الفضلاء الى مطارحة الادباء . ويعلم الله ان أسفى ليزيد شدةً وان ندمى ليعظم حدة كلما تذكرت ما كانوا يحدثونى عنه فى

أيام دولتى عن مجالس العلم والادب فما كنت آبَهُ بها ولا أنتبه اليها وكنت أظن أهلها قوماً من أهل الكسل والفراغ يجلسون للدفاتر والكتب كما تجلس النساء للغزل والردن والحمد لله الذى أرشدنى الى الهدى آخرَ الدهر فعلمت مقدار هذه النعمة التى حببت الىّ الحياة ثانية وهوّنت علىّ احتمال متاعبها وما إخالك تبخل علىّ بعد الان وقد علمتَ نفع ذلك لى بمداومة السير معى فى هذا الطريق الحميد وما أرى من بأس فى أن نترك هذه العزلة حيناً بعد حين للاجتماع بالناس فى مجالس الادب ومجامع الفضل وأندية العلم لنتذاكر معهم مانطالعه ونأخذ عنهم مايحفظونه . وقد زالت المخاوف واطمأنت الخواطر بزوال الاوبئة والطواعين والحمد لله رب العالمين

(عيسى بن هشام) — لا تطمعنّ أيها الاميرُ - دَفَعَ اللهُ عنك المكاره - فى مثل هذه المجالس فقد طوتها الايام ورمستها الليالى ولم يبق اليوم مَن يأنس اليها وينافس فيها

(الباشا) - كيف يكون ذلك وأنا لا أزال أسمع ما تزعمونه من كثرة المدارس الآن وانتشار العلوم والفنون وتعددِ الطالبين وسهولةِ الحصول على الكتب ووفرةِ المطابع وإطلاق الافكار من القيود . وأين هذا مما كنا عليه فى الزمن الاول من تعسّر الوصول

الى الكتب وتعذر استنساخها اضنّ أربابها كأنها لديهم خفايا الكنوز حتى لقد كان الجهلاء الذين لا ينتفعون بها ولا يفقهون منها شيئا هم أول من يفاخر باقتنائها ويعتبرونها ضربا من ضروب الزينة والزخرف كأنها اليواقيت والجواهر يعجز عنها من يروم الانتفاع بها إن لم يكن ذا ثروة واسعة تمكّنه من استنساخها او ابتياعها فلا بدع اليوم أن يكون فى يد كل مصرى كتابٌ يطالعه وأن يكون كل واحدمنهم قداصبح فى العلوم والفنون أليفَ محاضرة وحليفَ مذاكرة تُزدهَى به مجالس الفضل وتزهو أندية الأدب وكيف لا يكون ذلك وقد ذقتُ من حلاوة المطالعة والمذاكرة ماأنسانى حلاوة كل لذة فى العالم

(عيسى بن هشام) ـ نعم شاعت العلوم فى هذا العصر وترقت الفنون وكثرت المطابع وسهل على الناس اقتناء الكتب ومطالعتها ولكن قلّ بيننا عدد الراغبين فيها والمطالعين لها فكسد سوقها وبارت تجارتها وأغفلهامن ينتفع بها للاشتغال بسواها من الامور الباطلة والاشياء التافهة ورغب عنها من كان يقتنيها للزينة لكثرة الانتشار والتبذل . والناسُ اليوم فى حركةٍ لاشرقية ولاغربية قد اشتغل بعضُهم ببعض واكتفوا من دهرهم بحوادث يومهم فتعطلت

بينهم مجالس العلم واندرست مجامع الأدب واقتصروا على مطالعة اخبارهم فى الجرائد والصحف دون الدفاتر والكتب . وانَّى يكون لهم الاستقرار فى المجالس وهم لا يستقرون فى مكان ولا يهدأون من حركة ولا ينفكون عن غدو ورواح ولا ينتهون عن نقلة وسفر واكثر ما يكون جلوسهم فى المركبات مركبات الخيول أو البخار أو الكهرباء . وأهل اليسار منهم يقضون جزأ من شهور العام مترحلين فى بلاد الاجانب متنقلين فى ديار الغربة للتنزه والتفكّه . وقصارَى العلمِ عندهم أن يتلقى الطالبُ أشتاتاً منهُ فى المدرسة وأطرافاً وهو بالسنّ الذى لم يصل فيه بعدُ الى تمام التعقل وكمال الادراك فيحفظها ويؤديها كالببّغاء فان أسعدهُ الحظ فى آخر الدراسة ونجح عند الامتحان تأبط صك الشهادة ونَفَضَ يده من تلك العلوم وطرحها عنه طرح الثوب الخَلَق ونبذَها نبذ القادمِ على أهله ما أسِنَ من ماءٍ وماجفّ من زادٍ انتقاماً لنفسه مما عاناه من مشقةٍ وقاساهُ من تعب فى درسها وحفظها من غير أن يفقه لها مزية فى ذاتها أو يذوق لها حلاوة فى طعمها فاذا هو بلغ إربته ودخل فى خدمة الحكومة أصبح كالعامل من العمال لا العالم من العلماء وقلّ فيهم بعد ذلك من يصبو الى العلم وأهلهِ أو يحنّ الى الادب وكتبهِ ولئن مال بعضهم

للمطالعة فانها لا تتجاوز حدّ الكتب المتعلقة بأصول وظيفته ولذلك أصبحت كتب العلم والأدب مملولة منبوذة وثقل على الناس مطالعتها لِما هم فيه من كثرة الحركة والتنقل وطول الانهماك فى الاشغال المتجددة فلا يقوى احدهم على مطالعة صحيفة من كتاب الاّ وقد بلّله العرقُ ودهمهُ الكلال والملال ونزلَ بهِ الضجر والسأم وإنك لترى مثل هذا بيّنا فى حديثهم فهم لا ينصتون الى قصة متصلة ولا يتبعون فى الكلام قضية مرتبة ولا يعجبهم منه الا ما كان متقطعاً مبتوراً أو مقتضباً مجذوما

(الباشا) — ما اكاد أخليك ايها الصديق من غلوٍ فى وصف هذه الحال . وهل خلا أو يخلو زمان فى البداوة كان او فى الحضارة من مجالس للعلم ومجامع للفضل وأسواقٍ للادب وما كان زماننا الذى كنت فيه ليخلو من آثارها حتى لقد رأينا فيه كثيراً من الكبراء والامراء ممن لا نصيب لهم من العلم والادب لا يغفلون مجالسهم من وجود شاعر مجيد أو فاضل أريب اونديم اديب او محدث ظريف تتفكه به النفوس وتستريح له القلوب هذا والكتب بين الناس قليلة التداول والعلمُ بعيد التناول فما بالكم اليوم على هذه الحال التى تصف والصحفُ منشورة والكتب مطبوعة وأسماء العلوم مذكورة

(عيسى بن هشام) - قد استغنى كبراؤنا وأمراؤنا اليوم عن تزيين مجالسهم بالعلم والادب وقصروا همهم فيها على التفاخر بالمقتنيات المزخرفة والادوات المصنّعة من عمل الغربيين فترى الكبير أو العظيم يقلّب في يده العصا المضيئة بالكهرباء مثلاً او الساعةَ التي ترنُّ بعدد الثواني وهو يعتقد أنها أجلُّ قيمة في العين وأجمل أثراً في النفس من جميع العلوم التي تستضيء العقول بممارستها ومن جميع الكتب التي تصفو ساعات الحياة بمطالعتها. ولا تتوهمنّ أني اجزم لك بخلوّ هذا الزمن عن مجالس للعلم ومحافل للادب وما كان كلامي الاّ على الوجه الأعم وقد آن أن أجيبك الى ما طلبت فأزور بك بعض المجالس والمحافل لينقطع ريبك وليطمئن قلبك

*
* *

قال عيسى بن هشام - فتخيرتُ من منتدَيات اليوم. ومجتمعات القوم. ما يقوم بوفاء العهد. وإنجاز الوعد. ليقف الباشا بنفسه على ما يجرى فيها. من ظواهرها وخوافيها. ورأَيت ان أبدأ منها بزيارة السادة الاعلام. من علماء الإسلام. مصابيح الدين. ونباريس اليقين. ونجوم الارشاد. ورجوم الإلحاد. ونصراءِ الحق. وحلفاءِ الصدق. وهُدَاة كل ضالٍّ ومارق. ودعاة الخلق الى معرفة الخالق.

تيمنا بشرف مكانهم . وتبركاً بنور إيمانهم . فقصدنا مجلساً لهم جَمَع كل أغرّ منهم محجّل . وكل معظّم فيهم مبجّل . فوجدناهم قد تبوّءوا المقاعد . بين المقالم والمحابر . وتوسدوا الوسائد . بين المساعط والمجامر . فسلّمنا وجلسنا . وتكلمنا واستأنسنا . ثم أطرقنا نستجمع قُوى الادراك والعقل . لنلتقط ما ينتثر عن افواههم من درر العلم والفضل . وإذا بِهم يخوضون منذ البداية الى النهاية . فى حديث غريب الرواية لطيف الحكاية . فسمعنا أحدهم يقول لصاحبه فيما يبسطه ويقرره . ويعيده ويكرره :

(احد المشايخ) - لقد وهمتَ يا مولانا فى زعمك ان امتلاك الاطيان والجسور خير من اقتناء الابنية والدور . فقد جربتُ كلا الموردين واستقيت من المصدرين فوجدت دخل البناء أعظم ربحاً وأقل خطراً وأثبت حالاً فى تعاقب الصعود والهبوط لا سيما اذا كان الصقع جيداً والموقع عامراً وكان الساكن فيه من جماعة الافرنج الذين هم أقلّ من المسلمين عيالاً وأخفّ على البناء وطأةً وأهون على الدار ثقلاً فلا يدقّون ولا يطحنون ولا يعجنون ولا يخبزون ولا يغسلون ولا يستحمون ولا يقبلون عندهم اقارب او ضيوفاً ولا يملأون البيت خدماً وغلماناً وبهذا ينتفى ما ذهبتَ الى تقريره

آنفاً من أن البناءَ سريع العطب متطلب لدوام النفقة

(شيخ ثانٍ) - ولكنك ايها الاستاذ حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء وتسرعت بالحكم على المسألة والقطع فى القضية فأين انت من بقية الطوارئ والنوازل فى البناء وأين انت من الحريق والزلازل اللهم الا ان يكون هناك خروجٌ عن رأى الجماعة ودخولٌ فى مذهب الذين يقولون بتحليل التأمين على البناء عند شركات الافرنج وادّخار العوض فيها لسد الخسارة عند الخطْب

(جميع المشايخ) - نعوذ بالله من شر البدع ونبرأُ اليه من تحليل المحارم

(شيخ ثالث) - وأين انت فى الاطيان ايضاً من النداوة والدودة ومن الشرَق والغرَق

(الشيخ الثانى) - من المسلّم ان يصيب الاطيانَ بعضُ ما ذكرّتنا إياه ولكنها لا تزال بعينها باقية ويُرجى فيها ان تعوّض سنةٌ خسارة أختها اما البناء فانه يزول من اساسه بنكبة من تلك النكبات التى تأتيك بغتةً وتنزل عليك فجأة وتذهب بالجدار هباء ولا سبيل الى الانتفاع بأرضه الا بانشاء البناء وتجديده

(الشيخ الأول) - لكم دينكم ولىَ دين. فلست أتحوّل عن فكرى

ولا ازل عن رايى فى فضل البناء على الاطيان وقد عوّلت على بيع المنزل الكائن بحارة النصارى لأشترى بثمنه بعض الاطيان المجاورة لاطيانى بناحيتنا لتخلص لى اطيان الناحية كلها

(شيخ رابع) — أيغرب عنكم بارك الله فيكم أن ربح التجارة خير من هذا وذاك وهو الربح المستتر عن النظر المحتجب عن سوء العينة المحفوف بالبركة والنمو على الدوام ومَنْ منكم بلغ من الثروة بأطيانه أو أبنيته ما بلغه مثل الشيخ فلان رحمة الله على الجميع من التجارة والبيع

(الشيخ الثانى) — نعم ان التجارة لكما ذكرتَ لولا ما فيها من المشاغل والمتاعب ولولا ما تحدثه من التلهّى عن العلم والدرس

(الشيخ الثالث) — لقد كان شيخنا المرحوم الذى نحن بصدده يُعدّ من اكابر التجار وأعاظم اهل البيع والشراء فلم تلهه تجارته عن التقدم فى مراتب العلم والتعلق بالمناصب العالية ولم تشغله عن إفادة الطلبة بدروسه وتقاريره وبشروحه وحواشيه. وهؤلاء تلامذته ممن تزدان بهم اليوم حلقات الدروس وتفتخر بهم مجالس العلم يشهدون على ما أقول

(الشيخ الرابع) — متأسفاً متحسراً :

وإذا السعادةُ لاحظتك عيونُها ... نَمْ فالمخاوفُ كلُّهنَّ أمانُ

(شيخ خامس) — لكنما الأضمنُ عندى والأوثق فى هذا الشأن أن يضع المرء ماله لديه من فضة ونضار عند من يثق به ويعتمد عليه من خيرة التجار فيشتغل لهُ فى التجارة ويضاعف له الربح والكسب فيأتيه من ذلك رزقهُ عفواً صفواً بدون اشتغال فكر او تعب جسم او إضاعة وقت

(شيخ سادس) — لقد فاتنى ان اخبركم بما سمعته من فلان باشا وهو ان الربح كل الربح اصبح اليوم فى مشترى أسهم الشركات وأنه قصر سعيه فى نمو الثروة عليه . ولكن ماقولكم دام فضلكم فى هذه الاسهم وهل يحل التعامل بها أم يحرم

(الجميع) — وهذه ايضاً بدعة البدع

(شيخ سابع) — نعم وان كانت المسألة خلافية . وليس عندى أوثق ولا أضمن من ادّخار ذهبى فى صندوقى تحت يدى وأمام عينى يصبح لى سالمًا وأبيت عليهِ آمناً . وعلى ذكر فلان باشا هل عندكم من خبر عن تزويج ابنته من فلان بك

(الشيخ السادس) — نعم بلغنى ان الخطبة تمت بينهما

(الشيخ السابع) — ومتى يكون العقد

(الشيخ السادس) — لا تطمعنّ أيها الاستاذ فى الدعوة لعقد الزواج

وتناول الهدية ولا يطمعنّ فيها أحد منا بعد أن علمتم أن جماعة الكبراء والعلماء قد حكروا عقد العقود على اثنين من أرباب المناصب العالية بيننا حباً فى السمعة والفخفخة فهم يتباهون يوم العقد مثلا بوجود الشيخ محمد كما يتباهون ليلة الزفاف بوجود الشيخ يوسف

(الشيخ الخامس) - الشىء بالشىء يذكر فهل بلغتكم الدعوة الى عرس فلان

(الجميع) - نشهد أن الدعوة بلغتنا جميعاً

(الشيخ السابع) - نعم ولقد أجّلت سفرى الى الريف حتى أجيبها معكم

(الجميع) - أحسنتَ وأصبتَ فان المجاملة تقضى بذلك

(الشيخ الثالث) - والله لولا أن سعادة فلان باشا دَعانى الى العشاء معه فى هذه الليلة الموعودة وأن فى نفسى قضاء حاجة عنده لكنت معكم أيضاً ولكنى اخاف ضياع الفرصة فقد روَى لى سائق مركبتى ان عنده حِصاناً عتيقاً هو فى غنى عنه وأَنه مشابه لحصانى فى الطول والشعرة ولى أمل أن أبتاعه من سعادته بعد العشاء بما طفّ من القيمة وخفّ من الثمن

(الشيخ الخامس) - ولكن عسى الله ان يكون مجلسه خالياً فى

هذه المرة من وجود مثل ذلك السفيه الذى شوش علينا مجلسنا حين كنتُ معك بسوء المجادلة فانه خيّبه الله كان يحتج علينا فى تحليل التحلى بمصوغات الذهب بأن فلانًا من العلماء يحمل ساعةً من ذهبٍ غير ملتفت الى اختلاف المذاهب فى هذا الباب ولو كان الشيخ الذى سمّاه ممن يهتدى بنور العلم لمَا جعل لمثل هـذا السفيه سبيلاً فى الاحتجاج علينا

(الشيخ الرابع) — قُلْ ماشئتَ فى هذه الايام التى اجترأ فيها أرباب الطرابيش على أرباب العمائم بمباحثتهم ومجادلتهم ومناقشتهم ومزاحمتهم لهم فى علومهم وأين نحن من تلك الايام الماضية وما كان عليه العلم والعلماء من العز ورفعة القدر ووقوف الناس عند حدهم والتزامهم الصمت وحسن الاذعان والتسليم فى مجالس العلماء مع التوقير والتعظيم والإجلال والاكرام لكل من اتّسم بسمة العلم حتى كأنه قد كُتبَ على صدر كل واحد منهم نص الحديثين الشريفين : « العلماء ورثة الانبياء » و « علماء أُمتى كأنبياء بنى إسرائيل » . وكيف لا يكون الخطب جليلاً والمصاب عظيماً أم كيف لا تنهلّ العين بالدم دون الدمع وهؤلاء المتمشدقون لم يكتفوا بالاقدام على مجادلة العلماء بل أقدموا على تجهيلهم فى العلم وسعوا فى ادخال بعض العلوم المحدثة المبتدعة فى

حلقات دروس العلم الطاهرة ليجعلوا كبار علماء الدين الذين لا يكترثون بهذه العلوم الباطلة كالتلامذة لهم فانظروا الى أين وصلت بهم الجراءة والوقاحة. على أن علومهم هذه ليست بنافعة في الواقع ونفس الامر وماهى والعياذ بالله الاّ مَدرَجة للزيغ ومَزلقة عن الصراط يستدرجهم الشيطانُ بها من حيث لا يشعرون وأنتم تعلمون أن في معرفة قواعد الحساب الاربع مثلاً مايغنى عن التبحر والتعمق كما يفعلون في علم الحساب ليتدرجوا بالطالب الى علوم الفلسفة الممقوتة ويبعثوهُ على الزندقة والالحاد وَقانا اللهُ كيد الخائنين ومكر الماكرين

(الشيخ الثالث) — وعندك من هذه العلوم أيضاً علم التاريخ فانهُ عبارة عن الاشتغال بالاقاصيص والأساطير ولا بد ان يجرّ صاحبَهُ الى الخوض في سيرة الصحابة رضى الله عنهم وماوقع بينهم من الحروب مما نهى الشرعُ عنهُ بنص الحديث: « اذا أفضيتُم الى ذكر أصحابى فامسِكوا » ويكفى من هذا العلم كلهِ أن يحيط المرء بما جاء في « السيرة الحلبية » وحدها

(الشيخ الثانى) — خبّرونى ناشدتكم الله ماهو هذا العلم من علومهم الذى يسمونه « الجغرافيا »

(الشيخ الثالث) ـ هذا هو الذى يقال له عندنا علم تخطيط البلدان ولو كان قاصراً عندهم على ذلك لما كان ضارًّا ولا نافعاً ولكن ضرره عظيم ومغبّته وخيمـة بما امتزج فيه من نسبة الدوران للارض والسكون للشمس وتعليل حوادث السماء بتلك العلل المبتدعة التى يكذبها العيـان ولا يقوم عليها البرهان مثل زعمهم ان مطر السماء من جوف البحر وأن السحاب أبخرة متكاثفة وأن الرعد والبرق من احتكاك السحب بضغط الهواء مما ينافى العلل المعروفة المعقولة بيننا ويناقض ما رواه كعب الاحبار من أن السحاب من ورق الجنة وأن الرعد صوت ملَك يسوق السحاب وأن البرق لمعانُ حربة بيده . وأين هم حسبُهم الله مما رُوى عن ثبات الارض وأنها محمولة على قرن ثورٍ والثورُ محمول على صخرة والصخرةُ على ظهر حوتٍ سابحٍ فى الماء وأن أول ما يأكل أهلُ الجنة من كبد ذلك الحوت

على أننا لو طالعنا كتبهم التى يرون أنهم فاقوا بها الأوائل والأواخر بزعمهم ووصلوا بها فى علم تخطيط البلدان الى ما لم يصل اليه سواهم بدعواهم لوجدناها عاجزة فى الاحاطة والافادة عما بلغته « خريدة العجائب » وحـدها للامام ابن الوردى فاننا لم نسمع أنهُ ذُكر فى كتبهم من عجائب المخلوقات مثل ما ذكر منها فى الخريدة كبلاد

« واق الواق » التى يثمر ثمرها بالكواعب الأتراب معلقة من شعورها فى ذوائب الاغصان وكلما أشرقت عليها الشمس صاحت : واق واق . سبحان الملك الخلاق . ومِنْ مثل ما ذكر فى « بدائع الزهور ووقائعِ الدهور » عن الشيخ حامد أنه بلغ فى رحلته منبع النيل بعد أن عبَر اليه البحر الاسود على ظهر دابةٍ تعبد الشمس فاذا أشرقت الشمس على أحد شاطئيه أتَتْ الى ذلك الشاطئ ولا تزال دائرة مع الشمس حتى تصل الى الشاطئ الآخر . وقد رأى الشيخ حامد النيل يجرى فى ذلك البحر كالخيط الأبيض فى الثوب الاسود ووجده يخرج من قبة من ياقوتة حمراء وراء جبل قاف وأن ماءه هناك أبيض من الثلج وأحلى من العسل وهذه القبة يخرج منها أيضاً ثلاثة أنهر وهى سيحون وجيحون والفرات . فهل وصل القوم الى معرفة مثل هذه الحقائق في بدائع المخلوقات الى اليوم وهل عندهم من أثرٍ لذلك فى كتبهم المحدثة وعلومهم المبتدعة

(الشيخ الرابع) ـ تالله انَّا لفي زمنٍ أصبح القابضُ فيهِ على دينهِ كالقابض على الجمر في جانب هذه البدع الافرنجية « ومن يُضللِ اللهُ فما لهُ من هاد »

(الشيخ الاول) ـ اذكروا لى بالله عليكم ماذا حصّل طلاّبُ هذه

العلوم الجديدة منها وماذا أفادوه وهل سمعتم يوماً أن أحدهم نفع الناس فوضع لهم متناً أو شرحاً على متن أو حاشية على شرح أو تقريرا على حاشية أو اختصر مطوّلاً أو طوّل مختصراً

(الشيخ الثانى) ـ ما أعجزَهم عن مثل ذلك وأقصرَهم وجُلُّ ما في طاقتهم أنهم يكتبون المقالات فى تعييرنا بإضاعة العمر فى هذه الاعمال النافعة ويسعون جهدهم فى إبطال ما ندرسه منها وهل سمعتم لعمر أبيكم بدينٍ قام أو يقينٍ رسخ أو شرعٍ نفذ الا بهذه الشروح والحواشى ولكنهم لما قصرت أفهامُهم وضاقت قرائحهم عن استيعابها وحفظها حسدونا عليها فارادوا أن يحطوا من هذه المزية الكبرى حتى لا نمتاز عليهم بفضل ولله در القائل :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيَهُ فالكلُّ أعداءٌ له وخصومُ

(الشيخ الثالث) ـ صدقتَ صدقتَ وما أحكَم قول الآخر :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفتُهُ من الفهم السقيمِ

(الشيخ السادس) ـ اطووا عنا هذا الحديث ولا تشغلوا أوقاتكم بالكلام فى أولئك الثرثارين المتفيهقين فلهم كتبُهم ومدارسُهم ولنا علومُنا ودروسُنا والله يحكم بيننا وبينهم يوم القيامة

(الشيخ الخامس) ـ كان يجوز لنا السكوت عن منكرهم لو لم

يتعرضوا لنا ويعرّضوا بنا فى مايسمونه بالجرائد فيملأوها بالانتقاد علينا والقدح فينا ويتطفلوا على موائد اللغة الشريفة ويفخروا بأنهم برعوا فى فصاحة الوعظ والارشاد ونبغوا فى جميع العلوم وسبقونا اليها . وانما الجرائد أيضاً بدعة من البدع وفتنة من الفتن ولو شئنا لكتبنا وأملينا

(الشيخ الرابع) — ومع ذلك ففى كثير ممن طلب علينا العلم وسولت له نفسه الكتابة فى الجرائد من قد فاقهم فى طريقتهم وبذهم فى ميدان فصاحتهم وهذا الشيخ فلان ذلك النابغة الازهرى قدّم الىّ بالامس مقالة مطبوعة له فى الجريدة من أبلغ ما كتب الكاتبون وأفصح مانثر الناثرون لايمكن لاحد من أهل الدعوى أن يتعلق بغبارها أو يجرى فى أثرها والجريدة فى محفظتى فان أردتم ان أتلوها عليكم فعلت لتعلموا أن ليس لأولئك المغترين من فضل علينا ولا مزية دوننا

(الجميع) — أسمعنا أسمعنا

(الشيخ الرابع) — يقرأ :

« عوامل الفتح الالهىّ طراءة التأثير بحكم باعث اعتدال راع فى رعيته ومرعىّ مع راعيه ولما كانت القوانين الطبيعية تدعو الى

حفظ مزاج الجامعة من طوارئ الكوارث الدهرية التى اذا دعاها داعى التفرق والانقسام تلبّيه حيث هى النتيجة من مقدمات الاعتساف الذى هو مهد التخالف وبساط عدم التآلف وكان الانسان بحكم نشأته ميالا الى أقرب العوامل تأثيراً فقد وجب أن كل أمة لابدّ لها من أمرين

« فالامة هى منزل الكمال . ومحتد الجمال . ومربع الامارة . ومطمح الاشارة . ومقصد العبارة . ومورد المحافظة . ومسند المحاضرة . وسجل المناظرة . وكمال الناقص . ومرتغب الشاخص . وهى الرباط الاقوم . والحفاظ الانظم . فيها كل خير . ولها كل نفع وعليها كل ضير . ذات الحق . وحليفة الصدق

«وإنىّ ليدهشنى وقعاً ويذهلنى صدعاً اصلٌ جامع واثر نافع ما نطقت به ألسن الحكمة من سوالف العقلاء المفكرين وذوى الدراية المتوغلين وهو : « ان مبادئ تلاشى الامم تخاذل عقلائها » أجلْ أجلْ . إن هذا الامر ادعى الى لمح السوانح الفكرية والمسابقة فى مضمارها حتى يتبين طريق التلافى لاضرار التلاشى وذلك أن تخاذل العقلاء يفضى الى انقسام الوجهة وبانقسام وجهتهم تنقسم امة البساطة فيسود الإيغار وتحفّ مراكز العمران بالاخطار ويتنفس فيها

مصدور الاكدار بزفرات هى مبدأ كل دمار وتتولد الضغائن بين الحميم والخليل والوكيل والاصيل فيمسى الحال بخيبة المآل إن لم تتوفر شرائط الاعتدال ثم والعقلاء فى كل أمة هم اركان مجدها وأعمدة قوامها وسراج سبجها ومفتاح أقفالها ومعيار أقدارها ومصفاة ادرانها ومشكاة أفراحها فالاتحاد بينهم اقرب منه فيما بين غيرهم على بصيرة من صيرورة التساهل فيه الى حد التخاذل الذى هو أس المبادئ العقيمة . والمواجيد السقيمة . والعوامل الكليمة . والضرورات الاليمة والبسطاء تباعٌ فيما يسنونه لهم من قوانين التزلف والاذلال والخرف إن كانوا متخاذلين وقوانين الحكمة والمدنية إن كانوا متعاقدين متحدين وللناس قلوب يفعلون بها سوانح الفكر . فى سبُحات الذكر . وشطط النظر . ونوال الوطر . ولهم آذان يسمعون بها منادى الحق . فى نادى الخلق . بنشر الرق . الذى هو لوح الإعتبار . ونظرة النظار . وصفوة الأخبار . ومرتغب السباق . ومصطبر الأشواق . وبرنامج الماجريات . وممثل الاحقاب للاعقاب وحافظ ماضى لما هو آت

« بنى وطنى من الاسف والاستغراب ان الاجانب أصبحت وأمست تدعى أنها متأسية بجميع السلف من مراعاة الشريعة فى جميع

الاطوار وأن بيننا وبين التأسى بها بوناً بعيداً وأمداً مديداً . نعم هذا الادعاء وإن كان ليس بواقعي" الا أنه أجدى ثمرة وأمراً يجب علينا ان نتنحى عنه وإن كان ليس مقصوداً للأجنبي وحقاً له أن يدعى لاننا معاشر الوطنيين لو لم نتصف بهذا الوصف حقيقة لما تفرقت كلمتنا وضعفت قوانا وساءت حالتنا وأصبحنا فى حالة يرثيها الراثون فلا حول ولا قوة الا بالله . اين المتمسكون بالشريعة أين الغائرون أين الوطنيون المحبون لبلادهم الذين تربوا من خيرها وجعلوها مرتعاً ومحطاً لرجال الاجنبيين . أى فرق بيننا والحالة هذه وبين العجم اذا لم نتأثر من هذه الاحوال والدواعى التى تصادمنا كل حين وأى داع يدعونا للانتقاد على الاجنبيين فى أعمالهم التى يحدثونها لغرض سياسي" من الاغراض

« كلا . ثم كلا إننا مذ تناءينا عن الجرى على النمط الشرعي" ألمت بنا الشوائب اللأواء من كل صوب وفج وصرنا كمن بسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه أو كرجل أعمى أُلقى به فى الفلوات فأمته الأسود . فهذه حالتنا المأثورة التى بها تقاعدنا وتقدم الاجانب

إننى بهذا الصدد أقول إن الاتحاد هو حفظ الامة من أيدى الغير عند ما يريد المساس بها والدخول فى أحوالها الشخصية التى لا تعلق

له بها بأى حال من الاحوال واليكم البيان المسألتان اللتان مَضتَا ورُفِتَ بسببهما أستاذنا المفضال حين ما قام يساعد صاحب السماحة لخدمة الوطن الحقة فاتحدا ولولا ذلك لحل ماحل بأهل الاندلس وزاد الطنبور نغمة فسبحان مدبر الاحوال » انتهى والله أعلم

(الشيخ الاول) - ماشاء الله لاقوة الا بالله لقد أحسن وأجاد. وأدمى عيون الحساد

(الشيخ الثانى) - صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان من البيان لسحرا »

(الشيخ الثالث) - نعم ان هذا لهو السحر الحلال. والعذب الزلال

(الشيخ السابع) - تبارك الله ما أبلغَ وأفصح . وأبينَ وأوضح

(الشيخ الخامس) - بارك الله فيه . فلقد نثر الدرَّ مِنْ فيه

(الشيخ الرابع) - ألم أقل لكم إننا لو أردنا لكتبنا ولو عمدنا الى الكشف عما تكنه الصدور من أنوار العلوم لأخرسنا كل ناطق وأزرينا بكل كاتب وناثر ولكن ليس من الحكمة أن نبذل الجوهر لمن لا يعرف قيمته ولا الوعظ لمن لا يراعى حرمته

قال عيسى بن هشام - وما وصلنا من المجلس لى هذا الحد. حتى قام الباشا يُزمجر كالأسد الوَرْد . وجذبنى بيده للقيام . من غير

إذن أو سلام . فخرجت معه وهو يوالى الحسرات . ويتابع الزفرات . وينشد معى فى أهل هذا المجلس الأول . قول الأول:

ما فيهمُ برٌّ ولا ناسك   الاَّ الى نفع له يَجذبُ
أفضلُ من أفضلِهم صخرةٌ   لا تَظلِمُ الناسَ ولا تَكذِبُ

***

قال عيسى بن هشام ـ واستنهضتُ الباشا أزور به مجلساً من تلك المجالس المعدودة . والأندية المعقودة . مجلس الوجهاء والتجار . بعد مجلس العلماء والأحبار . فشهدتُ منهُ ازوراراً وانقباضا . ووجدت فيه انحرافا وإعراضا . ثم التفتَ اليّ يعاتبنى عتاباً شديدا . ويوسعنى عذلاً وتفنيدا . ويقول لى ما عهدت منك منذ صاحبتك الا الخيرَ لى تريده . والنفعَ تبدؤه وتعيده . وما زلت اشكر لك تلك اليدَ البيضاء . فى العزلة عن الناس والتخلص من مواقف القضاء . دفعاً لما كنتَ تحذر وتخشى . من شر الخاتمة وسوء العقبى . بتزاحم الاحزان . وتراكم الاشجان . وما تُعقبه من السقم والاعتلال . وسوء النكسة بعد النقه والإبلال . فما بالك تستنهضنى الى مثل هذه المجامع والمجالس . بعد الذى رأيناه فى مجلس اصحاب القلانس والطيالس . ذوى العلم والتقى . وأهل الرشد والنُّهَى . مما تذوب

له العيون الجوامد . وتتفجر عنده صم الجلامد . ويغضب له اهل الاسلام من المشرق الى المغرب . ولا يرضى به صاحب العرش فى السماء ولا صاحب المقام بيثرب . وقد شاهدتنى يكاد يصيبنى التلف . من شدة الحزن والاسف . فقلت أشهد الله ما أبغى لك الا الخير والتوفيق . فى كل مذهب وطريق . وقد رأيت التجارب أو سعتك كرماً وحلما . وصروف الدهر اكسبتك معرفة وعلما . بعد قلة الاختبار . وكثرة الاغترار . وسوء الابتدار . فى الإيراد والإصدار . وما كان فيك من خشونة الملمس وشموخ الأنف وضيق العطن وصلف الرأى . وما أحب لك بعد ذلك أن ترى فى أمور الناس الا مشهداً يسلى عن الكرب . وملعباً يفرّج عن القلب . فلا يكن نظرك الى أعمالهم فى غدوهم ورواحهم . وفى أفراحهم وأتراحهم . ونعيمهم وبؤسهم . ورجائهم ويأسهم . مثل نظر الحكيم «هيراقليط» . بل مثل نظر الحكيم «ديموقريط» . كان الاول يشاهد أمور الناس فيبكى ويتحسر . وكان الثانى يراها فيضحك ويسخر . فاذا أنشد أحدهما فى نصرة مذهبه :

الناسُ من دنياهمُ فى مأتمٍ فالسحْبُ تبكى والرواعدُ تندبُ

أنشد الثانى فى تأييد مشربه :

هذى الحياةُ روايةٌ لمشخّصٍ　　فالليلُ سِترٌ والنهارُ الملعبُ

ومن صواب الرأى ان لا تذهب نفسُك عليهم حسرات . ولا تذرف عينك من أجلهم العَبَرات . وهلمّ معى أمتعك بزيارة مجلس يؤنس من وحشتك . ويكشف من غُمّتك . فأسلس مطاوعاً فى القياد . ووافقنى على ما تبيّن له من الرشد والسداد . فيمّمتُ به داراً عاليـة الجُدران . واسـعةَ الأركان . شـائقة البنيان . لأحد التجار الاعيان . فزاحمَنَا عند الباب سائس يسحب فرساً مُصحباً مطيعا . ويحمل على كتفه طفلاً رضيعا يقول وقـد أظهر الغيظُ بواطنَهُ الـكامنة : لست أدرى واللهِ أَسائس أنا أم حاضنة . ومِنْ ورائه آخر يحمل صفحةً متدفقة بالمخلّل . يقول وقد تلوّث بمائها وتبلل : على مَ أَتعب فى هذه الدار وأشقى . والى مَ يدوم هذا الشقاء ويبقى . ولست أدرى واللهِ أسائق أَنا أم سقّا . ولما وَلجنا الباب . اذا بالبواب . يقول وفى يدهِ صُرّةُ ثياب : لا مردّ للمقدور والمقضيّ . ولا رجاء فى العيش الرخيّ . وواللهِ ماأدرى أبوّاب أنا أم خصيّ . ولما جاوَزْنَا دهليز المكان . الى باب الإيوان . وجدنا عندهُ غلاماً فتيّ السنّ . يتنهد ويَئنّ . وبين يديه دخان وورق . وبجانبه كتاب مطبق . وهو يقول : عجباً واللهِ للوالد يشغل ابنَهُ بسجاراتٍ

يحشوها. فيلهيه بها عن دروس له يتلوها. لاغرو إن فاضت العيون بسواكبها. واحترقت القلوبُ بلواهبها. فما أدرى والله أفرّاش الدار أنا أم ابنُ صاحبها. فما أحسّ بنا حتى انتفض قائماً. وتقدم مسلّما. ثم ذهب أمامنا. ليذكر قدومنا. واذا بالوالد مقبلاً علينا يتكفأ فى مشيته. ويتعثر فى جُبّتــه. فسهّلَ بنا ورحّبَ. وبالغ فى التحية وأسهب. ودخل بنا على اهل مجلس مختلفى الازياءِ والهيئات. متباينى الأشكال والسّمات. فَمِنْ صاحب عمامةٍ يتعهد بيده رصفهَا. وآخر يجدّد لفّها. ويحبك بالإبَرِ طرفها. ومِنْ صاحب طربوش قدأماله على جبينه. فاذاتحرك أسنده بيمينه. فترى يدَه أبداً لاتسكن ولاتستقر. كأنما هو فى تأديه سلام مستمر. ووجدناهم جميعاً قد كثر بينهم اللغو واللغط. وسمعناهم يتحاورون على هذا النحو والنمط:

(أحدهم) - نعم لابدّ من ذلك اذا يسّر الله وتم الاتفاق مع الخواجه فلان فان إقامة عمارة أخرى بجانب تلك العمارة مما يأتى بأرباح لايمكن أن تأتى بها الاشغال التجارية وأنا أنصحك ياأبا هاشم أن تترك التجارة جانباً فقد اصبحت الآن ولانفع يُرجى منها وتوكل على الله في الاشتغال معنا بالابنية فهى أنجح وأربح

(الثانى) - ومِنْ أين لى زادك الله من النعمة والبركة مايساعدنى

على هذا التوسع والحالُ على ماتعلم ضعيفة والحمد لله على نعمة الستر فهى الغنى الكامل

(الاول) ـ لاتقلْ هذا أيها السيد «وأمَّا بنعمة ربك فحدث».
ودعواك ضعف الحال إن هىَ الاَّ تواضع منك والله يزيدك فضلاً على فضل

(الثانى) ـ أستغفر الله ياسعادة البك هذا حسن ظن منك والاَّ فالحقيقة غيرماظننتَ وقدقلت لك إن الستر هو الغنى الكامل وعلى كل حال فالبركة فى التجارة فمنها كان رزق الاباء والاجداد. وربحٌ مستور أبرك من ربح مشهور

(ثالث) ـ تالله إنكم لفى ضلالكم القديم وهل بقى فى التجارة التى زاحمكم عليها الاجانب ربح يذكر أو رزق يُطلب فاتركوا هذه السفاسف وعليكم بأشغال الاقطان فى البورصة فهى الربح المضاعف والرزق الحاضر يأتيك رغداً بلا كدّ ولا تعب وكم رأينا من فقير ولَج البورصة فخرج بفضل المضاربات غنياً كبيراً وهذا صاحبنا الخواجه فلان اليهودى وفيكم من أدرك والدتهُ تبيع الخبز بالحارة قد مارس تلك الاشغال فاصبح أكثر الناس مالا وارفعهم حالا ونحن لا نزال على ما تركه لنا الآباء والاعمام رحمة الله عليهم

(رابع) ـ ولكن فاتك أيها السيد أن صاحبنا هذا الذى تعنيه لم يصل الى ذلك الا بأشغال السمسرة وفيها من الحطة مالا يخفى عليكم . وهل تريدون ان ينزل احدٌ منا بنفسهِ الى هذه الاشغال بعد أن عشنا مثل هذا العمر

(الثالث) ـ حاشا لله أيها السيد وليس هذا من قصدى وانما أردت أن ابيّن لكم أن هذا اليهودي دخل البورصة سمساراً لا يمتلك مالاً فأصبح من كبار الاغنياء فما بالك بمن يدخلها وهو صاحب ثروة . لا شك أنهُ يخرج منها بعد مدة قصيرة قارون زمانه

(خامس) ـ ما وراء الربح الكثير الا الخسرانُ الكبير وقد شاهدنا بأعيننا ما أنتجتهُ اشغال البورصة من تخريب البيوت العامرة وتبديد الغنى الواسع وانحطاط العماد الرفيع وأرى أن الإقدام على هذه المهالك من الجنون المحض « فاللهُ خيرٌ حافظاً »

(سادس) ـ اما أنا فلا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين وكفانى تأديباً ماتكبدتهُ من الخسائر فى تلك المضاربات على الاقطان ولولا فضل الله وبركة دعاء الوالدين لمَا نجوتُ من الخراب

(الثالث) ـ لاحول ولا قوة الا بالله إنك لاتهدى من أحببت كيف تخشون الخسارة فى أشغال الأقطان وتتوقعونها والربح فيها

مضمون مع بعض الانتباه لمجرى الاخبار وحسن التخمين فى الاحصاء وتقدير المحصول والمطلوب للتسليم ومع القليل من الممارسة والجرآء فى العمل

(سابع) — كيف تدّعى ذلك حفظك الله وهذا فلان المشهور قد انقطع لهذا العمل واجتمعت فيه معدّاته فما زال يهوى فى بحر البورصة حتى وصل فى الخسارة الى القرار وإن كان لا يزال ظاهراً فى أعيننا بمظهر الغنى الواسع والمال الجمّ

(ثامن) — سبحان الله ألا تعجبون معى من اتساع الشهرة بيننا بالغنى والثروة ثم لا يلبث أن ينكشف الحال عن القلة والضعف فكم سمعنا بأن فلاناً صاحب ثروة تقدّر بألوف الالوف ثم يظهر الخفيّ ويتضح الباطن فلا تبلغ الحقيقة معشار تلك الشهرة الكاذبة

(الخامس) — نعم صدقت ألم تروا الى المرحوم فلان كيف كان يفاخرنى فى كل مجلس عند ما أخذت الرتبة بأنه اكثر منى مالاً وأعظم ثروة وأن مقامه بذلك رفيع ومرتبته سامية فلما توفاه الله انكشفت الحال ولم يرث عنه اولاده ما يكفى لبقاء بيته مفتوحاً وبقاء اسمه مذكوراً وقس على ذلك أمثاله من هذا القبيل فسبحان الغنيّ الدائم

(الرابع) — دعونا بالله من ذكر الاولاد والمواريث فاننى كلما

تذكرت اخلاق أبنائنا فى هـذا الزمن ورأينا ماوصلت اليه ثروة فلان وما انتهى اليه حال أولاده من الفقر والضنك بعد أن بدّدوا تلك الاموال الطائلة واصبح ذكر أبيهم بينهم نسياً منسياً فلا يزورون له قبراً ولا يطلبون له رحمة ـ هان علىّ أن أنفق مافى حوزتى فى حياتى وان أتمتع بأموالى فى مدة عمرى

(الخامس) ـ معاذ الله ان نفعل ذلك بأبنائنا وما فائدتنا فى هذه الدنيا اذا لم نجمع الاموال وندّخر الثروة لاعقابنا و نترك لهم مايغنيهم عن سؤال اللئيم بعدنا . ولا تجعل الذنب كله على الاولاد فى تبديد المواريث بل الذنب كل الذنب على الآباء الذين يتركون اموالهم هملاً بعد موتهم و يغفلون عن تقييدها بالوقف فينتفع الاولاد بالريع وتبقى العـين قائمة والبيتُ مفتوحاً والاسم مذكوراً ولا يحتاج أحد من الذريّة وذرية الذرية مع وجودها الى . . . .

(السادس) ـ لامؤاخذة ياسعادة البـك فى مقاطعة الحديث ألم تسمع بما حصل فى وقف فلان و فلان وغيرهما و كيف اغتال النظار حقوق المستحقين وذهب الوقف ضياعا بين القضايا والدعاوى والديون حتى آل النظر والاستحقاق فيهـا لليهود واندثرت البيوت وعفت الآثار وذهبت أسماء اصحابها كما ذهب أمس قبل اليوم

(السابع) - نعم ينفع الوقف ويبقى الميراث على شرط ان يكون بمثل الشروط التى وقف بها المرحوم فلان . فانهُ خصص جانباً من الريع لذريته واشترط أن يُحفظ الباقى ويدخر وكلما تكوّن منه مبلغ عظيم يُشترَى به عقار ثم يوقف ويضاف الى الوقف الاصلى ليكون فى نموّ متواصل على توالى الايام وصروف الحدثان وبذلك يصير البيت فى درجة عالية من الغنى بعد وفاة صاحبه فوق ما كان عليه فى أيام حياته فأنعمْ بها من طريقة وأحسِنْ بها من وسيلة

(الثالث) - ليس ذلك من الحزم فى شئ ولكنه التغالى فى البخل والشح ومحبة الادّخار بعد مفارقة الحياة ولقد حَرَم المرحومُ نفسَهُ من التمتع بمالهِ فى حياته وحرم أولاده منه بعد موته بابتداع هذه الطريقة الغريبة فى شروط الوقف

(الاول) - أطلب منك العفو والسماح وعدم المؤاخذة فمَنْ يقول ان المرحوم كان شحيحاً مقتراً قد واللهِ عاشرتهُ الزمن الطويل فما رأيته يحرم نفسه أو يقتر عليها . وما كانت مائدته لتخْلو من الضأن او الحمام أو الدجاج وحقِّ جدك وانما كان الرجل حازماً لا ينفق ماله الاَّ فى الوجوه النافعة

(الثانى) - لا اعتماد عندى فى هذا الباب على الوقف أو الملك

وخير ما يدخر الوالد لأبنائه وأفضل ميراث لهم أن يحسن تعليمهم وتهذيبهم في المدارس وان لا يعوّدهم فى حياته الانفاق والتبذير بل يروضهم على التوفير والتدبير ومعرفة قدر الدرهم والدينار

(الاول) - وهل جاءتنا المصائب فى أولادنا الا من هذه المدارس وتعليمها وهل زادهم ذلك التهذيبُ الاماشئتَ من الفظاظة والوقاحة والكبرياء والمكابرة ولقدأدهشني فلان بالامس واضحكني في شكواه مُرّ الشكوى من حال ابنه المتهذب المتعلم فى المدارس والمجالس إذ قال لى فى حديثه : ما زال هذا الولد يزيد فى تعذيبي وتكديري منذ خروجه من المدرسة فأصبح لا يكلم اهلهُ الا بالرطانة ولا يعرب عن غرضه الا بالتعنيف والتأنيب ولا يرضى عن شيء فى البيت . فاذا جاؤا له بالماء قال فيه المكروب واذا أتوه بالخبز والجبن قال عليّ بالمكرسكوب ثم ترى الشقى يقسّم الأَطعمة أقساماً فيقول البيض واللبن غذاء كامل والخضر غذاء ناقص لا ينفع ولا يمري وأن الأُرز وما شابهه من « المواد النشائية » لا فائدة منها سوى انها تحترق كالوقيد فى الجسم وما زاد منه عن الحاجة .فهو شحم يغلظ به الجسد وتتورم به الاعضاء وأن الفواكه لا بد أن تؤكل من ساعتها اذا تشققت وخصوصاً البطيخ لأَنه أسرعها قبولاً لتولد الحيوانات السامة

وهلم جرّا حتى حيّر الخبيثُ أهلَ البيت فى طعامه وشرابه فوق ما حيّرنى فى اختلاف ملابسه وتعدّد أزيائه وكلما عارضتُهُ فى شئ شمخ بأنفه استكباراً ولَوَى عنقَهُ استحقاراً وسخر بى لجهلى وفخر علىّ بعلمه . هذا هو منتهى التأدب الذى يكتسبه أبناؤنا من علوم المدارس يتعالون على آبائهم ويعيّرونهم بجهلهم بعد أن كان الولد كالبنت البكر فى الزمن الماضى لا يرفع طرفه فى وجه والده حياءً ووجلاً وكان لا يجرأُ على مكالمته الا مجيباً عن سؤال من صغره الى كبره

(الثانى) — ولكن فاتك ان تعليم أبنائنا فى المدارس يفيدنا فائدة عظيمة يُغتفر لها كل ذنب وهى دخولهم فى سلك الموظفين فى الحكومة وارتقاؤهم المراتب والمناصب وياليت آباءنا كانوا التفتوا فى أيامهم الى تعليمنا فى المدارس فكنا استغنينا عن ممارسة التجارة وذل البيع والشراء وكساد السوق وترويج السلعة بالأقسام والأيمان فما العيش الا عيش الموظفين الذين يأخذون مرتبهم فى آخر كل شهر نقداً عيناً وذهباً خالصاً دفعة واحدة سالمةً لأيديهم بلا مطل ولا تسويف فى مقابل جلوسهم بالديوان ثلاث ساعات من كل يوم يقضون الجزء الاعظم منها فى المسامرات والمفاكهات ثم ناهيك بما لهم بين الناس من التوقير والتعظيم وما فى قدرتهم من مساعدة

الاصحاب ونكاية الاعداء . ورأس المال فى ذلك كله الاحاطة ببضعة كتب في المدرسة . فاخبرنى حينئذٍ أىّ ربح فى التجارة وأيّ شأن لها يوازي هذا الربح وهذا الشأن فى خدمة الحكومة وسبحان من قسم الحظوظ فلا عتابَ ولا ملامة

(الرابع) — كل هذا معلوم ومسلّم به ولكن من أين لك ان ينال ابنك الشهادة وانت تعلم حال القابضين على زمام المعارف فقدخرج اكثر أبنائنا من المدارس بلا شهادة وخسرنا عليهم الاموال فى نفقاتها ومَنْ صادفتهُ العناية منهم ونال الشهادة مثل ابنى فانه لم يزل يتردد على أبواب الحكومة فى تطلب الوظيفة والوظائف مشحونة ونظار الحكومة على ما تعهدهم من ضعف الهمة

(السادس) — عسى الله ان تتبدل الاحوال وتسقط هذه الوزارة ويمنّ علينا برجوع أؤلئك النظار الذين يهتمون بمصالح أهل البلد وأبناء الوطن فترى حينئذٍ كيف يكون تقدم أبنائنا فى المناصب

(الخامس) — حقا اذا ذهب هؤلاء النظار وعاد صاحبك الى الوزارة فقد أقبل علينا السعد وانجلت الكروب وصفت الاوقات وأنا أرجو أن لا تنسى ابنى عند السعى لانجالك فقد كان معهم فى مدرسة واحدة وهو دائما يطالع الجرائد ويترقب الحوادث التى

يكون من ورائها سقوط هذه الوزارة

(الثامن) ـ أراكم تخبطون في أمر أولادكم على غير هدًى . والأصوب عندى أن نعلمهم العلوم ليكونوا أسوة أهل زمانهم معرفة واطلاعاً لا لأجل التوظف فى الحكومة والخروج عن طبقاتهم . واما من جهة حفظ المواريث فى ايديهم بعد مماتنا فأحسنُ الطرق أن لا نقتر عليهم فى النفقة اثناء حياتنا وأن لا نتركهم بمعزل عن أشغالنا بل نخصص لهم قسماً من المال يشتغلون به على حدتهم تحت أعيننا ليتمرنوا على العمل ويدركوا لذة المكسب بأنفسهم فتتربى لهم ملكة الحرص على المنافع وينتفعوا بعلومهم في اتساع تجارتهم والتفنن فى أبواب المرابحة . وقد جربتُ ذلك في أولادى وأنا ارجو فيهم الخلف الصالح ان شاء الله

(السادس) ـ هل جاءت جريدة اليوم

(صاحب البيت) منادياً لابنه ـ إئتنا بالجريدة واقرأها علينا

(يحضر الغلام وفى يده الجريدة ناشراً لها)

(الاول) ـ اقرأ لنا من الاول

(الغلام) قارئاً ـ « الحرب »

(السادس) ـ هل وقعت الحرب